فرانتس كافكا

التَّحَوُّل



ترجمة: مبارك وساط

منشورات الجمل

رواية

فرانتس كافكا

التَّحَوُّل

ترجمة: مبارك وساط

منشورات الجمل

فرانتس كافكا: وُلِدَ في ٣ يوليو ١٨٨٣ ببراغ. كان والدُه، هِرمانْ، تاجر جُملة كبيرًا، وكان أبًا صارِمًا، قاسِيًا. أمّا أمّ فرانتس، يُولِي (واسْمُها العائليّ، قبل الزّواج: لُوفِي)، فكان من أفراد عائلتها مثقّفون وفنّانون، وكانتْ امرأة هادئة. كانت عائلة كافكا من البورجوازيّة اليهوديّة، ولغتُها كانت الألمانية. في الجامعة، درس كافكا الحقوق، وحصل على الدكتوراه سنة ١٩٠٦. في ١٩٠٨، نشرَ نصوصًا قصيرة في بعض المجلّات. وفي ١٩٠٩، أصبح على اتّصال مع مُنظّمات سياسية، وخاصّة مع الأناركيّين (الفوضويّين). في ١٩١٢، التقى فيليس باوير، التي ستصبح خطيبته، لكنّ علاقتهما ستنتهي إلى الفشل والانفراط. وفي هذه السّنة نفسِها، وتحديدًا في ليلة ٢٢ ـ ٢٣ من سبتمبر، كتبَ **قِصّة الحُكم**، وشخصيّتُها الأساسيّة، غِيُورغ بِنْدِيمانْ، يعاني من استبداد والده، ونتيجة طبيعة علاقته به، سينتحرُ، غَرَقًا... في سنة ١٩١٢، أيضًا، كتب كافكا **قِصّة التّحوّل**. ومن أشهر أعمال كافكا التي ستظهر بعد ذلك، نذكر: **في مستعمرة العقاب؛ المحاكمة؛ طبيب أرياف؛ القلعة**... أمّا فيما يخصّ حياته العاطفيّة، فبعد القطيعة بينه وبين فيليس باوير، وعلاقاتٍ أخرى سطحيّة وفاشلة، سيعيش حُبًّا قويًّا ومُتحقّقًا في الحياة الفعليّة، مع دُورا ديمانتْ، التي التقاها سنة ١٩٢٣، رغم أنّ داء السُّلّ كان، وقتها، قد أَوْهَنَ قواه. حين تمّ اللقاء المذكور، كان فرانتس في الأربعين، ودُورَا في الخامسة والعشرين، وقد عاشا معًا في برلين، مُتنقّلين بين عدد من الشّقق. ومات كافكا، ودُورَا إلى جانبه، يوم ٣ يونيو ١٩٢٤، في سناتوريوم (مصحّ للمصابين بالسّلّ) قريب من فيينّا.

مبارك وساط: شاعر ومترجم مغربيّ. صَدَر له، في مجال الشِّعر: **على دَرَج المياه العميقة** (الدّار البيضاء، ١٩٩٠)؛ **مَحفوفًا بأرخبيلات**... يليه: **راية الهواء** (منشورات عكاظ، الرّباط، ٢٠٠١)؛ **فراشة من هيدروجين** (بيروت، ٢٠٠٨)؛ **رجل يبتسم للعصافير** (بيروت ـ بغداد،٢٠١١). وله، في مجال التّرجمة: **المرتشي**، للطّاهر بن جلون (الدّار البيضاء، ١٩٩٤)؛ **شذرات من سِفْرِ تكوينٍ منسيّ**، لعبد اللطيف اللعبي (الرّباط، ٢٠٠٤)؛ **نادجا**، لأندري بريتون (بيروت ـ بغداد، ٢٠١٢).

فرانتس كافكا، **التّحَوُّل**، ترجمة: مبارك وساط، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Franz Kafka: Die Verwandlung, 1915

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

WebSite: www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

I

إذ استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، على إثر أحلامٍ سادها الاضطراب، وجد أنّهُ قد تحوّل، وهو في سريره، إلى حشرة عملاقة. كان مستلقيا على ظهره، الصُّلب مثلما درع، ولمّا رفع رأسه قليلا، رأى كرشه، منتفخة، داكنة، تُجزّئها خطوط مقوّسة جاسية، والغطاء بالكاد ممدود على أعلاها، ويكاد أن ينزلق عنها كلية. وكانتْ قوائمه العديدة، والدّقيقة بشكل فادح بالنّظر إلى ضخامة بدنه، ما تنفكّ تهتزّ، في حركة يراها ولا يستطيع إزاءها شيئا.

فكَّرَ: «ما الذي حدث لي؟». لم يكن الأمر حلما. فغُرفَتُه، وهي غرفةُ إنسان حقيقيّة، وإنْ تكُنْ شديدةَ الصّغر نوعا ما، كانت قابعة في مكانِها، مطمئنّةً بين الجدران الأربعة التي يعرفها جيّدا. وفي أعلى الطّاولة التي نُثِر عليها محتوى مجموعةٍ مفتوحة من عيّناتِ أصناف النسيج ـ فسامسا كان مُنْتَدَبًا تجاريًّا جوّالا ـ كانت باديةً الصّورةُ التي اقتطعها حديثا من مجلّة وجعل لها إطارا جميلا مُذَهَّبًا. وتبدو فيها سيّدة تضعُ قبّعةً ووشاحا للرّقبة، كلاهُما من فَرْو، وهي مستقيمةٌ جيّدا في جلستها، وتمدُّ نحو الرّائي أسطوانةً جسيمة من فَرْو أَثِيث، هي كُمّ مستقلٌّ ينحشرُ فيه ساعدُهَا بأكْمَلِه.

ثمّ توجّه ناظرًا غريغور إلى النّافذة. الجوّ المكفهرّ ـ كان وقعُ قطرات المطر على توتياء حافة النّافذة مسموعًا ـ سبّبَ له كآبةً عارمة. «لِمَ لا أنام قليلا مرّةً ثانية وأنسى كلّ هذه الأمور الخرقاء؟»، قال في نفسه؛ لكنَّ ذلك كان غيرَ قابلٍ بتاتًا للتّحقُّق، فَهُوَ كان قد اعتاد التمدّد على جنْبِه الأيمن لينام، وهذا قد صار مستحيلا في حالته الرّاهنة. فمهما كان يبذُلُ من طاقة لِينقلبَ على جنبه الأيمن، فإنّه كان يتهزهز مترجّحًا ومن جديد يسقطُ على ظَهْره. ولا شكّ أنّه حاولَ مئة مرّة، مُغْلقا عينيه لِئَلا يرى مشهدَ قوائمه في حركتها الرّاعشة، ولم يَكُفَّ إلا حين أحسَّ ببعض الألم الذي لا حِدّة فيه، والذي لم يسبق له من قبل أن استشعره.

«آه، يا إلهي»، قال في نفسِه، «أيّ مهنة متعبة قد اخترت! جَوَلانٌ، يومًا بعد يوم. وعمليّاتُ البيع تُثيرُ الأعصاب أكثرَ بكثير ممّا لو كانتْ في مقرّ الشّركة نفسِه، وزيادةً على هذا، فإنّ عليّ أن أحتملَ نَكَدَ التّنقّل، والهواجسَ المتعلّقة بوسيلة النّقل التي ينبغي أنْ تقطعَ بي المسافة ما بين قطارٍ أنزلُ منه وآخر يكون عليّ أن ألحق به، وعدمَ انتظام الوجبات ورداءتَها، والنّاسَ الذين تتعامل معهم والذين يتغيّرون باستمرار وبسرعة ولا تَتَكوّنُ لديهم مودّة تجاهك أبدا. فليذهب الشّيطان بكلّ هذا!». أحسّ بِحِكّة خفيفة في أعلى كرشه. تجرجر ببطء على ظهره نحو رأس السرير حتى يتمكّن من رفع رأسه بشكل أفضل، وبدت له البقعة التي شعَرَ فيها بالحِكّة والتي تناثرتْ على كاملِ مساحتها نقطٌ بيضاءُ صغيرة لم يستطع تكوينَ فكرة بصددها. رغب بجسّها بإحدى القوائم. لكنّه

سحب القائمة بمجرّد ما لمست ذلك الموضع، إذْ بعثتْ تلك اللَّمسة رعدةً باردة في كامل بدنه.

انزلق وعاد إلى وضعه السّابق. «لفرط ما يستيقظ المرء باكرا»، قال في نفسِه، «يصبح غبيًّا كُلّية. فالكائن البشري في حاجة إلى النّوم كفايةً. منتدبون تجاريون آخرون يعيشون مثل نساءٍ في حريم. وعلى سبيل المثال، فحين أعود أنا إلى الفندق خِلالَ الصّبيحة، لأقيّد الطّلبات التي قُدِّمَتْ لي، يكون هؤلاء السّادة ما يزالون بَعْدُ منشغلين بإفطارهم. رُبّما يكونُ عليّ أن أجرّب مثلَ تصرّفهم هذا مع ربّ العمل؛ ووقتَها، سَأُطرد على الفور. ومن يدري، فلعَلّ هذا يكونُ أمرا ممتازا بالنّسبة إليّ. فإنّي، لو لم أَتَحَكَّمْ في نفسي، آخِذًا والديّ بعين الاعتبار، لكنتُ قدَّمتُ استقالتي منذ وقت طويل. كنتُ سأمضي إلى حيثُ ربُّ العمل وأنْبئه من أعماق القلب بما يعتلجُ في ذهني. ذاك كان سيجعله يسقط من فوق نَضَده! يَجِبُ القول بأنّه ليس من اللياقة أنْ يجلسَ ربُّ العمل فوق النّضد ويتحدّث من عل إلى المستخدَم، الذي يجد نفسه مضطرًّا أيضا للدّنوّ منه إلى أقصى ما يستطيع، إذ إنّ ربَّ العمل ثقيلُ السّمع. على أيّ حال، فأنا لم أتخلّ عن كلّ أمل؛ وبمجرّد ما أكون قد جمعت المال اللازم لأداءِ ما يدين له به والداي ـ وهذا سيتطلّب حسب تقديري ما بين خمس وستّ سنوات أخرى ـ سأقوم، بلا جدال، بما يلزم. وَبِذلكَ أُنجِزُ الانفصال الكبير. لكن الآن، على أيّ حال، ينبغي أن أنهض، فالقطار الذي يُقِلّني ينطلق في الخامسة».

واتّجه ببصره إلى الساعة المُنبّهة التي كانت تَكْتَكَتُها تُسمع من فوق الخزانة. «يا ربّ السّماء!»، قال في نفسِه. لقد كان العقربان يشيران إلى السّادسة والنّصف، وكانا يتقدّمان في أناة. بل إنّ النّصف بعد السّادسة تمّ تجاوزه، ويتمّ الاقتراب من السّابعة إلا ربعا. أتُراهُ المنبّه لم يرنّ؟ من السّريركان باديا للعيان أنّ المنبّه ضُبِطَ كما يَجِب ليرنّ مع الرّابعة، وما من شكٌّ في أنّهُ قد رنّ. نعم، لكنْ أكان ممكنًا عدمُ سماع ذلك الرّنين الذي يمكنه أن يجعل الأثاث يهتزّ، والاستمرارُ في النّوم باطمئنان؟ حقًّا، لم يكن ممكنا القول إنّ نومه كان هانئا، إلا أنّه، بلا شكّ، كان عميقًا. لكن الآن، ما الذي ينبغي فِعلُه؟ فالقطار المُوالي سينطلق في السّابعة؛ ومن أجل اللحاق به، يتوجّب الإسراع بصورة جنونيّة، عِلْمًا بأنّ مجموعة العيّنات لمْ تُرْزَمْ بعد، وأنّه، هو نفسُه، بعيدٌ عنْ أن يستشعرَ نشَاطًا حقيقيّا أو توفُّزًا جِسْمانِيًّا. وحتّى إنْ لحق القطار، فهذا لنْ يُجنِّبه تعنيفَ ربّ العمل، ذلك أنّ مستخدَمًا للشّركة سيكون قد انتظره في مكان انطلاق قطار الخامسة، وبلّغ منذ فترة طويلة عن عدم التحاقه. لقد كان ذلك المستخدَم صنيعةً لربّ العمل، خنوعًا وبلا ذكاء. حسنا إذن، فَلِمَ لا يقول إنّه مريض؟ سيسبّب له ذلك حَرَجًا شديدا، وسيجْعَلُهُ مثارَ ريبة. فغريغور، طيلة السّنوات الخمس التي اشتغل خلالها بعمله هذا، لم يمرضْ ولا مرّة واحدة. أكيدٌ أنّ ربّ العمل سيجيء، وبرفقته طبيب صندوق التّأمين الصّحّي، وأنّه سيُنحي باللائمة على والديه بسبب تكاسل ابنهما، مُجْهِزا على كُلّ بادرةِ توضيح بالإحالة إلى

طبيب التّأمين الذي يَعْتبر، بصورة مبدئيّة، أنّه لا يوجد إلا أناسٌ في أتمّ الصّحّة والعافية ولكنّهم ميّالون إلى الخمول. مع هذا، هل سيكون الطّبيب مخطئًا حقًّا فيما يخصّ حالته هاته؟ ذلك أنّ غريغور، في الواقع، فيما عدا رغبته الحاضِرة في النّوم التي هي رغبة غير مبرّرة بتاتا لدى من نام مُطوَّلا مثله، كان يشعر أنّه في أحسن حال، بل وكانت لديه شهيّة للأكل، قويّة بشكل خاصّ.

وبينما كان كلّ ذلك يتوالى في ذهنه بسرعة فائقة مِن دون أن يستطيع اتّخاذ قرار مغادرة السّرير، دقّت السّاعة المنبّهة معلنة السّابعة إلا ربعا، وقُرِعَ البابُ الواقع لِصْقَ رأس السّرير برفق. «غريغور»، كانت أمه هي التي نادته، «إنّها السّابعة إلا ربعا. ألم تكن تريد أنْ تَسْتقلّ القطار؟» يا للصّوت الرّقيق! وانتاب غريغور الخوف حين سمع نفسَه يُجيب: كان ذلك بلا شكّ صوتَه السّابق، لكنْ مازَجَتْه، كما لو كانتْ قادمة من أسفل، زقزقةٌ أليمة لم يكن هنالك من سبيلٍ لِوَقْفها، وبمفعولها لم تكن الكلمات تحافظ على تمايزها إلا في لحظة النّطق بها تحديدا، وبعد ذلك، كانتْ تلك الزّقزقة تُفسِدُ جَرْسَ الكلمات إلى الحدّ الذي لا يعود مؤكّدًا معه أنّها تُسْمَعُ حقًّا. في البداية، كان غريغور ينوي أنْ يجيب بشكل مفصّل وأن يوضّح كلّ شيء، لكن، في هذه الظّروف، اكتفى بأن يقول: «نعم، نعم، شكرا أمّي، إنّي أنهض». لا شكّ أنّ الباب الخشبِيّ كان يَحُول دون ملاحظة تغيّر صوته من الخارج، ذلك أَنّ الأمّ قد طمأنها قولُه ومضتْ مجرجرة قدميها. لكنّ هذا الحديث القصير نبّه باقي أفراد الأسرة إلى أنّ غريغور، ضِدًّا على ما هو

متوقّع، كان ما يزال في البيت، وها هو الأب يسارع إلى قَرْع أحد الأبواب الجانبيّة قرعا خافتا ولكن بقبضة اليد، ويقول بصوت مرتفع: «غريغور، غريغور، ماذا هنالك؟». وبعد لحظة قصيرة، يعود ويقول بنبرةٍ عميقة أكثر: «غريغور! غريغور!». وخلف الباب الجانبي الآخر، كانت أخت غريغور تهمس بحزن رقيق: «غريغور؟ ألا تشعر أنّك بخير؟ أأنت في حاجة إلى شيء ما؟». ووجَّهَ غريغور نفسَ الجواب في الاتّجاهين، ناطقا الكلمات بأقصى ما استطاعه من وضوح، فاصلا بين الكلمة والأخرى بلحظة صمت ضافية حتّى لا يبدو صوته مثيرا للاستغراب: «سأكون جاهزًا على الفور». هكذا عاد الأب للاستمرار في إفطاره، لكنّ الأخت همستْ: «غريغور، هلَّا فتحْت، أتوسّل إليك». إلّا أنّ مسألة فَتْحِ الباب لَمْ تَكُنْ وارِدَةً بالنِّسْبة لغريغور، بل إنّه، على العكس، كانَ يُهَنّئ نفسه على الحيطَة التي اكتسبها من سَفراته، والتي كانتْ تجعلُهُ يُغلِق كُلَّ الأبواب، ليلا، بالمفتاح، حتّى حين يكون في الشقّة.

كان ينوي، بَدءًا، أنْ ينهضَ في هدوء ومن دون أنْ يُزْعِجَهُ أَحَد، وأن يرتدي ملابسهُ، وأنْ يُفطر بالخصوص، وبعدها، فحسب، يُفكّر فيما يتعيّن أنْ يلي ذلك من أمور، إذْ إنّه كان مدركًا تماما أنّ تأمّلاته وهو في السّرير لن تُفضي به إلى أيّ نتيجة معقولة. وتذكَّرَ أنّه، في العديد من المرّات، حدثَ أن استشعر ألمًا ما خفيفًا، سبّبَه له وضعٌ جسديّ سيّئ، وبعْدَها كان يتّضح له، ما إنْ ينتصبَ واقفًا، أنّه ألم متخيَّل ليس إلّا؛ وهَفَتْ نفسُه

إلى أَنْ يرى كيف ستتبخّر، بالتّدريج، التّصوّراتُ التي تشكّلتْ لديه هذا الصّباح. أمّا تبدّل صَوته، فقد كان نذيرا فحسب بزكام حادّ، أيْ بِمرض الشّغل المعهود لدى المنتدبين التّجاريين؛ ما من شكٍّ في هذا.

أنْ يُزيحَ عنه الغطاء، ذاك كان في منتهى السّهولة، إذْ لمْ يكنْ عليه سوى أن ينتفخ قليلا ليسقُطَ عنه الغطاء من تلقاء نفسه. لكنْ ما كان ينبغي أنْ يَلِيَ ذلك لمْ يكنْ بِنفس السّهولة، خاصّةً لأنّ عُرْضَ غريغور كان أكبر من المُعتاد. لقد كان يلزمُه ساعدان ويدان ليرتفع بنفسه إلى الأعلى؛ لكنْ لمْ يَكُنْ لديه، في مَحَلِّها، سوى تلك القوائم الصّغيرة الكثيرة التي لم تكُنْ تكفّ عن التّحرّك في كلّ الاتّجاهات، والتي لم يكن بمستطاعه حَتّى أنْ يتحكّم فيها. فإنْ حاول أن يثني واحدةً من بينها، فإنها، على العكس من ذلك، ستسارع إلى الانبساط؛ وإذا أفلح في نهاية المطاف في حملها على ما يريد، فإن بقية القوائم، خلال ذلك، وكأنْ لا رقيب عليها، تنصرف إلى التّحرّك في كلّ اتّجاهٍ باهتياجٍ، حركةً دؤوبًا ومؤلمة. «ما لا ينبغي، خاصّةً، هو البقاء في الفراش بلا طائل»، قال غريغور في نفسِه.

أراد أن يَخْرُجَ من السّرير بجُزْء جِسْمِه السّفليّ أوّلا، لكنّ ذلك الجزء، الذي لم يكُنْ بعدُ قد رآه، والذي لم يكن بمقدوره أن يُكوّن عنه فكرةً دقيقةً، استعصَى بِقُوّةٍ على التّحريك؛ واتّسَمَت المحاولة بِبُطْء ما بعدَه بطء. وفي نهاية المطاف، إذ وصَلَ إلى

حال من الاهتياج، وأسْقَطَ الحذر من حسابه، واندفع بجسمه إلى الأمام بِكُلّ ما استجمعه من قوّة، حدثَ أنّه لم يُحسن التّحكُّم في اتّجاه اندفاعتِه: وقد ارتطم بعمودٍ بحافة السّرير، والألم المُبَرِّح الذي استشعره جعله يُدرك أنّ القسم من جسده الأشدّ حساسيّةً، في اللحظة الرّاهنة، لرُبّما يكون هو القسم السّفليّ.

وهكذا، حاول أن يبدأ بإخراج جُزء جِسْمِه العُلْوي من السرير، واتّجه برأسه، في حذر، نحو الحافّة. تسنّى له ذلك بيسر، وبأناةٍ دارتْ كتلةُ جسده، على الرَّغْمِ من عُرْضِها ووزنِها، حاذيةً حذْوَ الرأسِ. لكنْ حين أصبحَ رأسُ غريغور، أخيرًا، خارج السّرير وفي الهواء، تملّكه الخوف من الاستمرار في التّقدّم بتلك الصّورة، ذلك أنّه كان سيجعلُ نفسه يسقط إذا استمرّ، وستلزم معجزةٌ، في تلك الحالة، لِئَلّا يُشَجَّ رأسُه. ولم يكن واردا، في هذه اللحظة بالذّات، أن يترك نفسه يفقد وعيه، لذا فضّلَ البقاء في السّرير.

من أجل التّمكّن من ذلك، بذل ثانِيَةً مجهودا يُضارع ذلك الذي تطلّبَتْه منه محاولة الخروج، ولكنّه، إذْ وجدَ نفسه ثانيةً في وضعه الأوّل، مُسْتلقيا، مُصَعِّدًا الزّفرات، ورأى مُجدّدًا قوائمه الصَّغيرة تتبادل الضَّربات فيما بينها بقوّة ربّما تكونُ قد اشتَدَّتْ، وإذْ لم يجد وسيلةً لإحلال النّظام والهدوء محلَّ هذه الحركات الاعتباطيّة، قال لنفسِهِ إنّهُ من المستحيل عليه البقاء في السّرير، وإنّ الأمر الأكثر معقوليّةً هو أن يَقْبَلَ تقديم كلّ التّضحِيّات إذا ما كانتْ هنالك بارقةُ أمل في أن يتخلَّص من هذا السّرير. ولم يفتْه في غضون ذلك، أن يُذَكِّرَ نفسَه بين لحظةٍ وأُخرى، بأنّ التّفكير

بهدوء، بهدوء شديد، خيرٌ من اتّخاذ قرارات تحت تأثير اليأس. وفي تلك الأثناء، كانَ يُسَمِّرُ عينيهِ في النّافذة بأشَدِّ ما يستطيع، لكن، يا للأسف! فمشهدُ الضّباب الصّباحيّ الذي كان يَحول حتّى دون رؤية الجانب الآخر من الشّارع الضّيّق، لمْ يكنْ ليُشَجِّعَ على الفرح والثّقة في النّفس. «إذن فهي السّابعة!»، قال في نفسه إذْ سمع السّاعة المنبّهة تَرِنّ من جديد، «السّابعة، وما يزال هنالك مثلُ هذا الضَّباب!». وللحظةٍ قصيرة، بقي متمدّدًا في هدوء، خافتَ الأنفاس، كأنّما ينتظر من الصّمت التّامّ أنْ يجعلَ الأمور تستعيد واقعيّتها وبداهَتَها.

لكنّه قال لنفسِهِ بعد ذلك: «من الضّروريّ مُطلقًا أنْ أكون قد خرجتُ من السّرير قبل أن تُعْلَنَ السّابعة والرُّبْع. وعلى أيّ حال، فمن الآن إلى تلك اللَّحْظة، سيكون أحدُهُمْ قد جاء من الشّرِكة ليسأل عنّي، فأبوابُها تُفْتَح قبل السّابعة». إثْر هذا، شرع في أرجحة جسده بكامل طوله بشكل شديد الانتظام، مُتَّجِهًا به إلى خارج السّرير. فإذا كان سيترك نفسه يسقط بهذه الطّريقة، فَمُرجَّحٌ أنّ الرّأس، الذي كان ينوي أنْ يرفعَه بقوّة وهو يهْوي، لنْ يُصاب بجروح، أمّا الظّهر فيبدو أنّه صُلب، ولا شكّ أنّ سقطةً على البساط لن تؤذِيَه. وما كان يُسَبِّبُ لِغريغور أشدّ القلق هو القرقعةُ المُدَوّية التي ستنتج بالضّرورة عن السَّقطة، والتي، إنْ لم تبثّ الذّعر، فهي بلا شَكّ ستُسَبِّبُ قلقًا ثَمَّةَ خلفَ الأبواب. مع هذا، لمْ يكنْ هنالك بُدٌّ من المُجازَفة.

إذْ أصبح نصف جسد غريغور خارج السّرير ـ طريقتُه الجديدة

هاته كانتْ ضرْبًا من اللعب ولم تتطلَّبْ مجهودًا يُذْكَر، فقد كان يكفيه أن يهتزَّ باندفاعات متوالية ـ، خَطَرَ له فجأةً كيف كانَ الأمر كلّه سيصبح في منتهى اليُسْر لو قَدِمَ إليه من يُساعده. إنّ شخصين قويّيْن ـ فكَّرَ في أبيه والخادمة ـ ستكون فيهما الكفاية؛ ولن يكون عليهما سوى إدْخالِ أذرعهما تحت ظهره المُقَوَّس لإخراجِهِ من السَّرير، وبعدها ينحنيان بِحِمْلِهما ويتركانه، ويتأنّيان حتّى يستقيمَ واقفًا على الأرضيّة، حيثُ سيكتسبُ وجودُ القوائم الصّغيرة، فيما يَأْمل، معنًى ما. لكنْ، وَبِغَضِّ النّظر عن كون الأبواب كلّها موصَدة، أكانَ يَجْمُلُ به حقًّا أن يُوَجِّه نداءً، طلبًا للمُساعدة؟ وإذْ عنّتْ له هذه الفكرة، لمْ يستطِعْ أنْ يكبح ابتسامةً، رغم الضّيق الشّديد التي كان فيه.

كان الآن قد تزحزح إلى الحدّ الذي أصبحَ معه الاهتزاز، بِقوّة أكبرَ قليلا، كفيلا بجعله يفقد التّوازن، وإذن، فقد كان عليه أنْ يتّخذ قرارًا نهائيًّا، ذلك أنّه لم تبق إلَّا خمس دقائق وتَحُلّ السّابعة والرّبع ـ في ذلك الحين، قُرِعَ جرَس بابِ الشُّقَّة. «إنّهُ واحِدٌ من الشَّرِكة»، قال في نفسِه، وقد تجمّدَ تقريبا، فيما كانتْ قوائمُهُ الصّغيرة تتراقصُ بِسُرْعةٍ زائدة. ولِلَحظةٍ، رانَ السُّكون. «إنّهم لن يفتحوا له»، قال غريغور في نفسِه، وقد راودَهُ أملٌ أخرق. لكنْ، بعد ذلك، مضت الخادمة، كالدّأب والمعتاد، بخطى حازمة نحو الباب، وفتحتْه. وما إنْ سمع غريغور أولى كلمات التّحيّة التي نطق بها الزّائر حتّى عرف مَنْ كان: مُسَيِّرَ الشّركة نفسه. لِمَ كان على غريغور، وليس غيره، أن يشتغل في شركة يُؤَدِّي فيها أقلُّ

تقصير إلى إثارة الرّيبة بشكل فادح؟ أكان كلّ أولئك المستخدَمين، دون استثناء، أوغادًا إذن؟ ألم يكنْ من بينهم شخصٌ واحد مخلصٌ ومتفانٍ في عمله، شخصٌ واحد يُمكِنُ أنْ يجعله عذابُ الضّمير، إن هو توانى عن خدمة الشّركة ولو لساعاتٍ معدودة من فترة الصّباح، إلى فقدان الصّواب والعجز الفعليّ عن مغادرة سريره؟ ألم يكن في الحقيقة كافيا أن يُرْسَل لاستقصاء الخبر واحِدٌ من المتمرّنين المبتدئين ـ إنْ كان هذا الاستقصاءُ ضَروريًا حَقًّا؟ أَوَ كان لازمًا أنْ يجيءَ مُسَيِّرُ الشّركة بشخصِه، وأنْ يُظْهِرَ، بالتّالي، لكلّ هذه العائلة البريئة أنّ تفحُّصَ هذه القضيّة المُريبة لا يُمكن أنْ يوكَلَ إلّا إلى فطنة المُسَيِّر؟ وتحت وطأة الانفعال الذي سبّبه له التفكير في هذا الأمر أكثرَ ممّا هو بِقرار فعليّ منه، ارتمى غريغور بكلّ قواه إلى خارج السّرير. ما نجم عن ذلك كان ارتطاما عنيفا وليس طقطقةً مُدَوّية. فالبِساط خَفَّفَ شيئًا ما من أثرِ السَّقطة، كما أنّ ظهر غريغور كان أكثر مرونةً ممّا حَسِب، ومن هنا كان الصّوت الذي نجم عن الارتطام خافتًا، فلم يكن لِيُثيرَ انتباه أحد. ولكنّ رأسَه، الذي لمْ يَكنْ قد حافظ عليه مرتفعا بصرامة، كما تَسْتوجِبُ الحيطة، كانَ قدْ أُصيب. وقد أدار رأسه جانِبًا، منزعجًا ومتألّمًا، وشَرَعَ في حكّه على البساط.

«شيءٌ ما قد سَقَط، هنا في الدّاخل»، قال مُسيّر الشّركة في الغرفة المجاورة على اليسار. حاول غريغور أن يتصوَّر مدى إمكان وقوعِ ما ألمّ به اليوم للمسيّر نفسه في القادم من الأيام؛ وحقًّا، كان يتوجّبُ الإقرار بعدم استحالة ذلك. وكما لو أن المُسَيِّر أراد

أنْ يَرُدّ على ذاك التساؤل بفظاظة، فإنّهُ قام بخطى حازمة في الغرفة المجاورة، فَصَدَرَ عَنْ حِذائِه المُلَمَّع، الطّويل السّاق قليلا، صريرٌ مسموع. ومن الغرفة المُجاورة على اليمين، كانت أختُ سامسا تُعْلِمه في همس: «إنّ مُسَيّرَ الشّركة ها هنا!». ـ «أعرف ذلك»، قال غريغور كالمتحدّثِ إلى نفسِه، إذْ إنّه لم يَجرؤ على الرّفع من صوتِه إلى الحدّ الذي تَسْتطيعُ معه الأختُ سماعَه.

عِنْدئذٍ قال الأب، من الغرفة التي إلى اليسار: «إنّ السّيّد مُسَيِّر الشّرِكة حاضِرٌ هنا، وهو يسأل عمّا منعك من المُضِيِّ في القطار الأوّل. إنّنا لا ندري ماذا نقول له. كما أنّه يرغب في التّحدُّثِ إليكَ شخصِيًّا. اِفْتَح الباب إذن، أرجوك! وبالتّأكيد، فطِيبتُه ستجعله يَغُضُّ الطَّرْف عن فوضى غُرْفتك». ـ وفي أثناء ذلك، قال المسَيِّر بصوت مرتفع، وُدِّيِ النّبرات: «صباح الخير، سيّد سامسا!». «إنّ حالته ليست بالحسنة»، قالت أمّ غريغور، فيما كان الأب ما يزالُ يتكلَّم، مُلْتَصقًا بالباب، «إنّ حالتهُ ليستْ بالحسنة، ثِقْ بي، سيادة المسَيِّر. وإلّا فكيفَ يُمكنُ أنْ يُفَوِّتَ غريغور القطار؟ فليس في ذهن هذا الفتى سوى شغله في الشّركة. وهو لا يخرج أبدًا خلال المساء، الأمر الذي يجعلني أكادُ أغضبُ منه؛ فها هو الآن في المدينة، إذْ لمْ يُكَلَّفْ بجولاتِ بيع لمدّة ثمانية أيام، ومع هذا ففي كُلّ مساء، تجدهُ مُلازمًا الشقّة! إنّه يبقى جالسا إلى المنضدة، رفقتنا، يقرأ الجريدة في صمت، أو ينكبّ على دراسة مواقيت القطارات. بل إنّ استعمالَ منشارِ زخرفة الخشب يُعَدُّ بالنّسبة إليه تسْليةً. وعلى سبيل المثال، فهو قد صنع بروازًا صغيرا خلال

أمسيتين أو ثلاث، وسيُدهشك، سيّدي، جمالُه؛ لقد علّقه في غرفته؛ ستراه حين يفتح غريغور الغُرفة. وإنّي لمسرورة بوجودك هنا، سيّدي مُسَيِّر الشّركة، فقد كانَ سيتعذّرُ علينا، من دونك، إقناعُ غريغور بفتح باب غرفته؛ فهو عنيد جِدًّا؛ ولا شكّ أنّ حاله سيّئة، رغم أنّه قال العكس في هذا الصّباح». «أنا قادمٌ على الفور»، قال غريغور بتريُّث ورصانة، ولكنْ من دون أن يتحرّك، حِرْصًا منه على ألّا تفوته كلمة من الحوار الجاري. «أنا أيضًا لا أستطيعُ أنْ أجد للأمر تفسيرًا آخر، سيّدتي الكريمة.»، قال المُسَيِّر، «فلنَتَمَنَّ ألا تكون حالُه خطيرة. من جهة ثانية، ينبغي أيضا أنْ أقول إنّنا، نحن رجال الأعمال ـ لسوءِ حظّنا أو لِحُسْنِه، حسب زاوية رؤية كلٍّ منّا ـ كثيرا ما تجعلنا متطلّباتُ عملنا نستخِفُّ بالوعكات الخفيفة». ـ «وإذن، هل يمكن للسّيّد المسيّر أن يدخلَ الآن ليراك؟»، قال الأب، نافدَ الصّبر، وهو يقرع الباب من جديد. «كلّا!»، قال غريغور. إثْرَ هذا، رانَ الصمتُ والحرج في الغرفة التي إلى يسار غرفة غريغور، وفي الغرفة التي يمينها، بدأت الأخت تنتحب.

لِمَ لا تلتحق أخته بالآخرين؟ لا شكّ أنّها استيقظتْ للتّوّ ولم تشرع بعد حتّى في ارتداء ملابسها. وَلِمَ إذنْ كانتْ تبكي؟ ألأنّه لم ينهض من فراشه ولم يترك المُسَيِّر يدخل إلى غرفته، ولأنَّهُ مُهدَّدٌ بأن يفقدَ عمله، الأمرُ الذي سيجعل ربّ العمل يعود إلى اضطهاد والديه مطالبا إياهما بتسديد الدّيون القديمة؟ لكنَّ مثل هذه الهواجِسِ لم تكن مبرّرةً في اللحظة الحاضرة، ذلك أنّ غريغور

كان موجودًا لا يزال، ولم تكن فكرة التّخلّي عن أسرته لتراودَ ذهنه بتاتًا. أمّا في هذه اللحظة، فقد كان، حقًّا، مُمَدَّدًا على البساط، وما كان لأيّ شخص عليم بحالته أن يُطالبه بشكل جدّي بأن يستقبل مُسَيِّرَ الشّركة. لكنْ ليسَ عدمُ اللياقة الطّفيفُ هذا، الذي لا شكّ أنّهُ سيعثُرُ لاحقًا بِشأنه على عذرٍ لائق، هو الذي سيُسَبِّبُ لغريغور طرْدًا مؤكّدًا! وبدا لغريغور أنّ الحصافة الحقّة تقتضي، في الحاضر، أنْ يُترَكَ وشأنُهُ، عِوضَ أن يُضايقوه بما يسمع منهم من نحيبٍ ومن وغْظ. لكنّ انعدام أيّ يقين لديهم فيما يَخُصُّ حالتَه، هو ما كان يسبّب قلقهم، ويُبرّر سلوكهم.

«يا سَيّد سامسا»، توجّه إليه المُسَيِّر رافعًا من صوته هذه المرّة، «ما الذي يجري إذنْ؟ إنَّكَ تتمترسُ بداخل غرفتك، ولا تجيب إلا ب«نعم» أو «لا»، وتُسَبِّبُ لوالديك هواجس خطيرة ولا مُبرِّرَ لها، وتُخِلُّ ـ وأُشير إلى هذا بالمناسبة بشكل عابر ـ بواجباتك المهنيّة بصورة لا تُعقَل بتاتا. إنّي أتكلّم هنا باسْمِ والديك وبِاسْمِ مُشَغِّلِك، وإنّي لأُهيبُ بك أنْ تُقَدِّمَ تفسيرًا فوْرِيًّا وجَلِيًّا لكُلِّ هذا. إنّي مندهش، مندهش. كنتُ أحْسِبُك شخصًا رصينًا ومتعقّلاً، وها قد بدأتْ تَظهرُ لديك، بلا مواربة، نزواتٌ غريبة. وقد لَمَّحَ الرّئيس، في هذا الصّباح، إلى تفسيرٍ ممكنٍ لِمَا بَدَرَ منك من إهمال، من منطلقِ أنّكَ قد كُلِّفْتَ منذ عهدٍ قريب بتحصيل المداخيل، إلّا أنّي أكّدْتُ لهُ بِشَرَفي، تقريبًا، بأنّ ذلك التّفسيرَ لا يُمكنُ أنْ يكونَ صائبًا. لكنّي الآن ألحظُ عنادكَ غيرَ القابل للفهم فتعْزُفُ نفسي عن أيِّ تدخُّلٍ لصالحك، مهما كانَ بسيطًا. ثُمَّ إنّ

وضعِيّتَكَ بعيدةٌ عن أنْ تكون من الوضعِيّات المُوَطّدةِ حَقًّا. كُنْتُ، في البداية، أُريد أنْ أقولَ لك هذا فيما بيننا فحسب، لكنّكَ تُضيعُ لي وقتي من دون طائل، ولِذا فلمْ يَعُدْ لديَّ مانع من أنْ يُحاطَ والداك أيضًا عِلْمًا بالأمر. وإذنْ، فإنّ مردوديّتك، خلال الفترة الأخيرة، كانتْ بعيدة عن أنْ تَكُونَ مُرْضِيةً. لا شكّ أنّ هذا الموسم من السّنة ليس ممّا تُنجز فيه مُعاملات تجارية باهرة؛ نحن لا نجادِلُ في هذا؛ ولكِنَّ موسِمًا تنعدم فيه المعاملات التّجاريّة كُلِّيةً هو موسِمٌ لا يُوجَد، يا سيّد سامسا، إنّهُ موسِمٌ يَجِبُ ألّا يُوجَد. «لكنْ، سيّدي المُسَيِّر»، قال غريغور بصوت جهوريّ، وقد فقدَ السَّيْطرة على نفسِه، فلمْ يعُد يولي اعتبارًا لأيّ شيءٍ آخر، «سأفتح البابَ على الفوْر، دونما تأخّر. إنّها وعكة خفيفة، دُوارٌ ألمَّ بي وجعلني لا أستطيعُ النّهوض. لا أزالُ في الفراش. ولكنّي الآن أستعيدُ حيويّتي. في الحال سأغادر سريري. أطلبُ لحظةَ صَبْرٍ وجيزة فحسب! لا، إنّ حالي لمْ تتحسَّنْ إلى الحدّ الذي تصوّرتُ. لكنّي أشعر أنّها خيرٌ ممّا كانتْ عليه. يا للمباغتة التي تَدْهمُنا بها مثلُ هذه الأمور! ففي مساءِ أمسِ، ووالداي يعرفان ذلك، كنتُ في أتمّ صِحّة وعافية؛ بلْ لِأَقُلْ إنّه كان لديّ، منذ أمسِ مساءً، استشعارٌ مُسْبَق لأمرٍ مشؤوم. ولا شكّ أنّ ملامحي كانتْ تَشِي بذلك. ولكنْ لِمَ لمْ أُعْلِم الشَّركة! الحالُ أنّ المرء يحسبُ دائمًا أنّه سيتغلَّبُ على المرض من دون حاجةٍ إلى أنْ يَلزمَ مسكنه. سيدي المُسَيِّر! راعِ شُعور والديّ. فالمآخذ التي أفصَحْتَ عنها تجاهي ليس لها من أساس، ولذا لمْ يسبِقْ أنْ قيلتْ لي كلمة

واحدة تَنِمُّ عنها. ولربّما أنت لمْ تَرَ الطَّلَبِيّات الأخيرة التي نَقلتُ إلى الشَّركة. كما أنّي سألحقُ قطار الثّامنة، وقد جعلتْني ساعاتُ الرّاحة هاته أُجَدِّد قواي. لا تُضِعْ وقتك هنا يا سيِّدي المُسَيِّر؛ فأنا سأتّجِهُ دونَ إبطاء إلى الشّركة، وأرجوك أنْ تتكرّم بإبلاغ رئيسنا بأنّي قادم فورًا وبنقل مشاعر عِرْفانِي إليه!»

وبينما كانت الأصوات تنبثقُ عن غريغور دافقةً دون أن يكون مُدْرِكًا حقًّا لِمَا يَنطقُ به، كان، بِسهولةٍ ناجمةٍ بلا شَكّ عمَّا قُيِّضَ لهُ من تمرّنٍ وهو في السّرير، يَقتربُ من الخزانة، وها إنّه الآنَ يُحاول أنْ يَقومَ، مُسْتَنِدًا إليها. إنّه، حَقًّا، يُريدُ أنْ يَفْتَحَ الباب، وأنْ يجعل المنتظرين يرونه فِعْلا، وأنْ يتحدّثَ إلى مُسَيِّرِ الشّركة؛ ولديه رغبة قويّة في أنْ يعرف ما سيقوله الآخرون، الذين يطالبون الآن بظهوره بينهم بإلحاح، لدى رؤيتهم إيّاه. فإنْ تملّكهم الفزع، سَقَطتْ عن غريغور المسؤوليّة وأمكنه أنْ يستعيدَ سكينته. أمّا إذا لَمْ يروا في الأمر ما يُكَدِّرُ طُمأنينتهم، فإنّه لن يكون لديه بدوره من داعٍ للقلق، وسيكون بإمكانه فِعلا إذا أسرع أن يكون في محطّة القطار في الثّامنة. في البداية، انزلقَ وسقطَ مرَّاتٍ عديدة لأن سطحَ الخزانة كان صقيلا جِدًّا، لكنّهُ، في نهاية المَطاف، اندفع بكلّ قواه فَوَجد نفسه منتصبًا؛ ولم يعد يبالي بما يستشعره في بطنه من آلام، حتّى إن احتدَّتْ. ثمّ ترك نفسَه يَهوي على ظهر كرسيّ مُحاذٍ له، جاعلاً قوائمَه الصّغيرة تتشبّثُ بظهر الكرسيّ ذاك. وفي ذاتِ الوقت، تمكّن من استرجاع سيطرته على نفسِه، وأخْلَدَ إلى الصّمت، ذلك أنّه أصبح بإمكانه، الآن، الإنصات إلى أقوالِ مُسَيِّرِ الشَّرِكة.

«أَفَهِمْتُما كلمة واحدة؟»، قال المُسَيِّر مُوَجِّهًا السّؤال إلى الوالدين، «أَتُراهُ يضحكُ على ذقوننا؟» ـ «لا كان ذلك، بِحقِّ الإله!»، صاحَت الأمّ وقد انخرطتْ في البُكاء، «قد يكونُ مريضًا جِدًّا، ونحنُ بدورنا نقوم بتعذيبه. غْرِيتِهْ! غْرِيتِهْ!»، وإذْ رفعت الأمّ عقيرتها مناديةً بهذا الاسْم، أجابت الأخت من الجهة الأخرى: «أُمّي؟». كانتا تتبادلان الكلام عبر غرفة غريغور. ـ «عليكِ أن تذهبي حالا إلى الطّبيب. غريغور مريض. أَحضِري الطّبيب بسرعة. هل سمعتِ غريغور وهو يتكلّم قبل لحظة؟» ـ «لقد كان ذلكَ صوتَ حيوان»، قال مُسَيِّر الشّركة بصوتٍ خفيضٍ مُقارَنَةً بِصِياح الأمّ. وعلا صوتُ الأب بنداءٍ وَجَّهه صوبَ المطبخ، عبر الرّدهة، وهو يَصْفِقُ بِيديه: «آنّا! آنّا! امْضِي حالا واجلُبي مُصْلِحًا للأقفال!». وسرعان ما كانت الفتاتان تجتازان الرّدهة، مسرعتين ولتنّورتيهما حفيف ـ كيفَ أمكن غريته أن ترتدي ملابسَها بتلك السُّرعة؟ ـ وفتحتا باب الشّقّة إلى أقصى ما يُمكن. ولمْ يُسْمعْ صَوتُ انغلاقِه؛ فلا شَكّ أنَّهُما تركتاهُ مفتوحًا، كما يفعل ساكنو البيوت التي تَحيقُ بها فاجِعةٌ ما.

لكنّ غريغور كان الآنَ شديدَ الارتياح. أكيدٌ أنّ كلامَه لم يعُدْ مفهومًا بالنّسبة إليهم، رغم أنّ أقواله بدتْ له متمايزةً بصورةٍ لا بأسَ بها وأكثرَ من ذي قبل ـ وربّما يعود هذا إلى كونِ أُذنيه قد اعتادتا عليها ـ لكنّهم، في نهاية المطاف، لا شَكَّ قدْ بدؤوا يتصوّرون أنّه لمْ يكنْ تمامًا في حالته الطّبيعيّة، ولذا فسيكونون قد أصبحوا مستعدّين لمساعدته. والثّقة والحزم اللذان اتُّخِذَ بهما

الإجراءان الأوّلان كان لهُما في نفسه وقعٌ حسن. فقد شعر أنّه عاد من جديد إلى محيط أبناء جِلْدتِه، وبدأ يتوقّع من الطّبيب ومُصْلِح الأقفال، دونما تمييز فِعْليّ بينهما، أنْ يتوصّلا إلى نتائج باهرة وخارقة. ولكيْ يكونَ صوتُهُ واضِحا إلى أبعد حدٍّ، تحسُّبًا لمحادثات حاسِمة وشيكة، تنحنح ليجلوَ حنجرته، قاسِرًا نفسَه على أن يجعل الأصوات الصّادرة عنه في منتهى الخفوت، ذلك أنّه يُمكنُ أنْ يكونَ لها جَرْسٌ غيرُ بشريّ، وهذا ما كان قد فَقَدَ الجُرأة على إصدار حُكْم بِصَدَدِه. في تلك الأثناء، كانَ يرينُ على الغُرْفة المجاورة صمتٌ مُطْبِق. فلرُبّما كان والداه ومُسَيِّر الشّركة يتهامسون، جالسين حول المنضدة، وقد يكونُ الثلاثة مُسْنِدين رؤوسَهُمْ إلى الباب، مُصيخين السّمع.

اتَّجه غريغور ببطءٍ إلى الباب، معتمدًا على الكرسيّ، ثُمّ تركه، واندفعَ صَوْبَ الباب وتشبّثَ به ليظلّ منتصبًا ـ كانتْ أسافِلُ قوائمه الصّغيرة دبِقة لَصُوقة ـ وبقي للحظةٍ معتمدا على الباب بجسمه، ليرتاحَ بعد ما بذله من جهد. إثْرَ ذلك، شرع في محاولةِ إدارة المفتاح في فتْحةِ القفل بفمه. لكنْ، للأسف، ظهر أنّه لم يعُد يملك أسنانا حقيقيّة ـ فبماذا سيتحكّمُ بالمفتاح إذن؟ ـ، وبالمقابل، فقد كان فكّاه قويّين جِدًّا؛ واستطاع، إذ استعملهما أن يجعل المفتاح يتحرّك فعلا، دون أن يُلقيَ بالاً إلى ما كان يُسَبِّبُه لنفسِه من إيذاءٍ أكيد، ذلك أنّ سائلا بُنِّيَّ اللون كان ينبثق من فمه ويسيلُ على المفتاح، ثمّ يتساقطُ على الأرضيّة، قطرةً قَطرة. وقال مُسَيِّرُ الشَّركة: «اسْمَعُوا! إنّه يُدِيرُ المفتاح!». وشعر غريغور أنّ في

تلك الكلمات تشجيعًا قَوِيًّا له؛ وإنْ بدا لهُ أنّه كان يتوجّبُ على الجميع، بمن فيهم حتّى الأب والأمّ، أنْ يصيحوا به: «هيّا يا غريغور»، كان عليهم أن يرفعوا عقائرهم مُوجِّهين أصواتهم تجاهه: «عليك بالاستمرار، لا تَترك القُفْلَ يُفلتُ منك!». وإذ شَعَرَ أنّهم كانوا بأجمعهم شديدي الاهتمام بجهوده وبما ستؤولُ إليه، أطبق فكّيه على المفتاح بكلّ الطّاقة التي أمكنه استجماعُها، دونما تفكير في أيّ شيء آخر. وفيما كان المفتاح يدور شيئًا فشيئًا، كان هو في حركة راقِصةٍ حول القفل، ذلك أنّه لم يكن يُحافظ على انتصاب قامته إلَّا عن طريق فمِه الّذي، بواسطته، كان تارةً يتعلَّقُ بالمفتاح، وأُخرى يضغط عليه ـ مُسترفِدًا كلَّ ثقلِ جسده ـ وذلك تبعًا لمدى قُوّة المجهود الذي كان ينبغي بذلُه. وأخيرًا، فرقع القُفل منفتحًا، فأيقظت فرقعتُهُ غريغور إيقاظًا. تنفّس الصّعداء وقال في نفسِه: «لم تكن بي حاجة، إذن، إلى مُصلح أقفال». ووضع رأسه على المقبض ليكمل عمليّة فتح الباب.

وباعتبار الطّريقة التي لزمهُ أنْ يتّبعها لفتح الباب، فإنّ هذا الأخير كان قد انفتح بما فيه الكفاية قبل أن يُصبِحَ غريغور نفسُه بادِيًا للعيان. فقد كان عليه أن يدور حول طرفِ أحدِ مِصْرَاعي الباب ببطء شديد وحذر أشدّ، إذْ لَمْ يكن يرغب في السّقوط على ظهره بصورة خرقاء، في لحظة اعتزامه الدّخول إلى الغرفة الأخرى. وقد كان لا يزال منكبًّا على إنجاز هذه الحركات الصّعبة، ولم يكن لديه وقت لينتبه إلى أيّ أمر آخر، حين سمع صوتًا عاليا جِدًّا، شبيهًا بزمجرة ريحٍ عنيفة، أَطلقَهُ مُسَيِّرِ الشّركة:

«أوهْ!». ثمّ رآى غريغور بدوره مُسَيِّرَ الشّركة، الذي كان، من بين الآخرين، أقربَهم إلى الباب، يرفعُ يدهُ إلى أعلى ويُطْبِقُ كفّه على فمه الفاغر ويمشي القهقرى ببطء، كأنّ قُوّة لامرئيّة كانتْ لا تَنِي تدفعه إلى الخلف. وأَلْقتِ الأمّ ـ التي كانتْ قد تركتْ شَعْر رأْسِها كما كانَ غِبَّ استيقاظِها، مُهَوَّشًا منتفِشًا، وذلك حتّى بعد مجيء مُسَيِّر الشَّرِكة ـ نظرةً في اتّجاه الأب في البدء، ضامّةً يدًا إلى الأخرى، ثمّ تقدّمتْ خطوتين صوب غريغور قبل أنْ تتهاوى في الوَسَط من تنّورتيها اللتين انبسطَتا مِنْ حولها، وقد حَنَتْ وَجْهَها على صدرها فأضْحتْ رُؤْيَتُهُ مُسْتَحيلة. وكوَّرَ الأبُ قبضتَه في حركةٍ عدائيّة كما لو كان ينوي دَفْعَ غريغور إلى داخل غُرْفَتِه، ثمّ أجالَ الطَّرْف حواليه في غرفة الجلوس وعلاماتُ التّردُّد باديةٌ عليه، قبل أنْ يُخفيَ عينيه بيديه وينخرطَ في البُكاء بصورةٍ جعلتْ صدرَهُ المكتنز يَخْتَضّ.

تَخَلَّى غريغور، إذن، عن فِكْرة الدّخول إلى غرفةِ الجلوس، وبقي مستندًا إلى المِصْراع المُوصَدِ بإحكام، بِصُورةٍ لم يكنْ يبدو معها إلا نِصْفُ جِسْمِه، وكانَ قدْ حَنَى رأسَهُ وأمالهُ بِصورةٍ تُتِيحُ له اختلاسَ النّظر إلى الآخرين. وفي غضون كُلِّ هذا، كانَ الجوّ في الخارج يزدادُ صَحْوًا؛ وكانَ يُرَى بِجلاء، في الجانب الآخر من الشّارع، جُزْءٌ من الجدار الرّماديّ القاتم، جدارِ البناية المقابلة المترامية الأطراف ـ كان ذاك مستشفى ـ، التي كانتْ تَخْرِمُ واجهتَها نوافذُ منتظمة. كان المطرُ ما يزال يسقط، لكنْ على شكلِ قطراتٍ كبيرة فحسب، تراها العينُ مُتَمايزةً، كأنّما قُذِفَ بها صَوْبَ

الأرض واحدةً تِلْوَ أخرى. وكانتْ أطباقُ الإفطار الكثيرة ما تزالُ منتشِرةً فوق المائدة، ذلك أنّ أَبَ غريغور كان يعتبرُ الفطور أهمّ وجبات اليوم، وكانَ يُمَدِّدُ الوقت المُخَصَّصَ له لِساعات ينصرفُ خلالها إلى قراءة صُحُفٍ مُتَنَوِّعة. وعلى الجدار المقابل كانت مُعَلَّقَةً صورةٌ لغريغور تعود إلى أيام خدمته العَسْكَرِيّة، يبدو فيها مُرْتديًا بِزّةَ ملازم ـ يدُهُ على مقبض السّيف وابتِسامتُهُ تَنِمّ عن الارتياح ـ وحريصًا على أنْ يُخصَّ بالاحترام الذي تستلزمه هيبتُه وبزّتُه. ولِأَنّ البابَ المُفْضي إلى الرّدهة وبابَ الشّقّة كانا مفتوحين معًا، فعبرهُما كانَ مُمكِنًا رؤيةُ بَسْطة السُّلَّم ودرجاتِه الأولى النّازلة.

«حسنًا»، قال غريغور، وكانَ يُدْرِكُ جيّدًا أنّه هو الوحيد الذي حافظَ على هدوئه، «سألبسُ ثيابي في الحال، وأحزمُ مجموعة العَيّنات، وأمضي. ستتركونني أمضي، أليس كذلك؟ وإذن، سيّدي مُسَيِّر الشَّركة، ها أنت ترى أنّي لستُ بالمُعانِد، فأنا أرغبُ حَقًّا في الشّغل؛ والسّفرُ شاقّ، ولكنْ لا حياةَ لي من دون هذه السَّفَرات. إلى أين أراكَ تمضي، سيّدي المُسَيِّر؟ إلى المكتب؟ أليس كذلك؟ أَستَرْوِي كُلَّ شيءٍ بِدِقَّةٍ وصِدقٍ؟ فمن المُمكن أَلّا يكونَ المرء قادِرًا على العمل في لحظةٍ ما، ولكنْ وَقْتَها بالتّحديد ينبغي استحضارُ مُنْجزاتِه السّابقة، واعْتِبارُ أنّه ما إنْ ينزاحَ العائقُ مِنْ أمامِهِ حتّى ينصرفَ إلى عملِه بمزيدٍ من التّركيز والهِمّة. إنّي مَدينٌ بالكثير لرئيسنا، وأنت تعرفُ هذا جيّدًا. ومن جهة أخرى، فعليّ أنْ أكون سندًا لوالِديّ ولأختِي. أنا في ورطة، ولكنّي

سأتخلّصُ منها. وإذن، فلا تزِدْ في تعقيدِ أموري المعقّدة أصلا. وابْقَ على مساندتِكَ لي في الشّركة. إنّهم لا يُحبّون المنتدبَ المتجوّل، أعرفُ هذا. يحسبون أنّه يكسبُ أموالاً لا تُعَدّ وأنّه يَحْظَى بعيشٍ رغيد. فِعْلا، ليس لديهم من سببٍ خاصّ يدفعهم لإعادة النّظر في هذا الحكم المسبق. لكنّك أنتَ، سيّدي مُسَيِّرَ الشّركة، تعرفُ الأحوالَ خيرًا من باقي المشتغلين فيها؛ بل وأحسنَ ـ أقول لك هذا فيما بيننا ـ حتّى من رئيسنا نفسِه، فكونُهُ صاحبَ الشّركة، يجعلُهُ مُهَيّأً لِتعديل حُكمِهِ على أَحَدِ مُسْتَخْدَميه بصورةٍ لا تكونُ في صالح هذا الأخير. وأنتَ تعلم جيّداً أنّ المنتدب التّجاري الجوّال، الذي يكون بعيدًا عن مقرّ الشّركة طيلة السّنة تقريبًا، قد يُصْبِح، بِسهولة، هدفًا للتَّقَوُّلات، أو ضحيّةً لحادثٍ ما غيرِ مُتَوَقَّع، وقد تستهدفُه شكاوى مُفتعلة كُلِّيَةً لا يُقَيَّضُ لهُ أنْ يَدْحَضَها، إِذْ لا يَعْمَد أَحَدٌ، على العموم، إلى مُفاتحته بِشَأْنِها، ولكنّه بعد أنْ يعودَ من جولاته مُرْهَقًا تمامًا، ستطالُهُ تَبِعاتُها الوخيمة، وهو لا يستطيع حتّى تحديدَ سَبَبِ ما يقع له. سيّدي مُسَيّرَ الشّركة، لا تنصَرِفْ قبل أن تقول لي كلمةً تُبَيّن أنّك تراني مُحِقًّا، ولو قليلاً». لكنّ المُسَيِّر كان، منذ أنْ لفظَ غريغور كلماتِه الأولى، قد استدار عنه جانبا فلمْ يَعُد ينظرُ إليه إلّا من فوقِ كتفه الرّاعشة، كما كانتْ شفتاهُ قد انفرجتا. ولم يبْقَ ساكنًا للحظةٍ واحدة منذ أنْ بَدَأ غريغور في الكلام، بلْ إنّه، من دونِ أنْ يرفع عينيه عن غريغور، كان يتراجعُ نحو الباب، بأناةٍ شديدة، كما لو أنَّ قانونًا سِرّيا ساريَ المفعول كانَ يَحظُرُ الخروج من

الغرفة. وحين تَراجع بإحدى قدميه إلى الرّدهة، اجتذبَ الثّانية، المتبقّية في الغرفة، إلى الخارج بِحركة فُجائيّة يحسبُ معها المرء أنّ لهيبًا كان قد بَلَغَ أخْمَصَها. وفي الرّدهة، مدّ يُمناه إلى أقصى ما يُمكن، في اتّجاه الدَّرَج، كأنّ خلاصًا ذا طابع خارِق ينتظره هناك.

وفكّر غريغور أنّ عليه ألا يترك مُسَيِّر الشّركة، بأيِّ حال من الأحوال، يمضي وهو في تلك الحالة الذّهنيّة، إنْ كان لا يريدُ أنْ يُعَرِّضَ وضعيّته في الشّركة لِخطرٍ عظيم. أمّا الوالدان، فلم يكونا مدركين للأمر كما يُدْرِكُهُ هو؛ فعلى امتداد سنوات، كان قد ترسّخ لديهما اليقين بأنّ غريغور قد استقرّ بتلك الشّركة حتّى آخرِ أيّامه، وعلاوة على هذا، فقد كانا غارقين في هموم حاضرهما إلى حدّ أنّهما لم يكونا قادرين على التّطلّعِ إلى ما سيأتي. وفيما يَخُصُّ غريغور، فقد كان لديه بُعْدُ النّظر. كان ينبغي، إذن، استبقاءُ مُسَيِّر الشّركة، وتهدئته، وإقناعُه، واسْتِمالتُهُ في نهاية المطاف إلى أنْ يصبح نصيرًا؛ فعلى هذا يتوقّفُ مُستقبل غريغور وعائلته! ويا ليتَ الأختَ كانتْ هنا! فهي ذكيّة؛ وقد بكتْ حين كان غريغور ما يزال مستلْقِيًا على ظهره. وبالتّأكيد، فإنّ مُسَيِّر الشّركة، وهو صَديقٌ للنِّساء، كان سينقادُ لها؛ كانت ستُغلِقُ باب الشُّقّة، وفي الرّدهة، كانَ حديثُها إليه سيُبَدِّدُ مخاوفَه. لكنّ الواقع أنّ الأخت لم تكن حاضرة، وقد كان على غريغور أنْ يتولّى الأمر بنفسِه. ودون أنْ يدورَ بِخَلَده أنّهُ كان لا يدري شيئًا عن قُدراتِه الحَرَكيّة في الحاضِر، ودونَ أنْ يَعِنَّ له أنّه مُمْكنٌ، بل مُرَجَّحٌ، أنَّ الكلام الذي توجّه به إلى المُسَيّر لمْ يكنْ

مفْهومًا أيضًا، تزحزح عن مصراع الباب المُوارب، واندفع عبر الشَّقّ راغِبًا في المُضِيّ نحو مُسَيّرِ الشّركة، الذي كان على بَسْطة الدَّرَج، متشبّثًا بِكلتا يديه، وبصورة مضحكة، بدرابزين السُّلَّم؛ وإذْ حاولَ غريغور أن يعثر على شيءٍ يستند إليه، سَقَطَ دونما إبطاء، جاثِمًا على قوائمه الكثيرة العدد، وندّتْ عنه صرخةٌ وجيزة. وما إنْ ألْفى نفْسَهُ في هذا الوضع حتّى استشعر، للمرّة الأولى في تلك الصّبيحة، بأنّهُ في حالة ارتياجٍ جسمانِيّ؛ فالقوائم الصّغيرة كانتْ تحمله بثبات على أرضيّة ثابتة؛ كما أنّها كانتْ مطواعةً كُلّيةً، وقد لاحظ ذلك بابتهاج؛ بل إنّها لم تكنْ تطلب سوى أن تحمله إلى حيثُ يشاء؛ وهكذا بدأ يعتقد أنّ الشّفاء التّامّ ممّا كان يُعانيه أضْحى وشيكًا. لكنْ في اللحظة التي كان يكبحُ خلالها رغبتَه في الحركة ـ الأمرُ الذي جعله يترجّحُ قليلا ـ وهو مُمَدَّدٌ على الأرضيّة، قُبالةَ أمّه وقريبًا جِدًّا منها، إذا بِها، هي التي كانتْ تبدو مستغرِقَةً تمامًا في التّفكير، تقفزُ واقفةً على قدميها، مادّةً ذراعيها وفارِدةً أصابِعَها، وتصيح بأعلى صوتِها: «النّجدة، بحقِّ السّماء، النّجدة!»

لقد حنتْ رأسَها كما لو أنّها كانتْ ترغب في أن ترى غريغور بشكل أفضل، ولكنْ، في نفس الوقت، في حركة غير مفهومة تنمّ عن عكسِ ذلك، كانتْ تتراجعُ إلى الوراء بسرعة كبيرة، ناسِيةً أنّ خلفَها كانت هنالك المنضدة التي لا تزال الأطباق مَنْثورَةً فوقها، وإذْ حَبِسَتْها المنضدة، بادرتْ هي إلى الجلوسِ عليها، في استعجال، كما لوكانتْ تفعلُ ذلك وهي غائبةُ العقل، ولم يبدُ أنّها

لاحظتْ أنّ إبريق القهوة الكبير قد انقلب إلى جانبها، وأنّ سيلا من القهوة كان يزحف على البِساط. «أُمّي، أُمّي»، قال غريغور بصوتٍ خفيض، وهو يتطلّع إليها. كان مُسَيّر الشّركة قد زايلَ ذهنَهُ في تلك اللحظة؛ وبالمقابل، فلدى رؤيتِه القهوة التي تتسايل، لم يستطع منعَ فَكَّيْهِ مِنْ أن يُطرقِعا، فبالرّغم منه، كانا قد تباعدا ثُمّ انطبقا، مرّاتٍ عِدّة، في حركةٍ تَشَهٍّ، لا جدوى منها. وهذا ما جعل صراخَ أمّه يتعالى، ودفعها إلى الهرب بعيدًا عن المنضدة، لتجد نفسها في حضن الأب الذي كان مقبلا نحوها في إسراع. لكنّ غريغور لم يكن الآن يملك من الوقت ما يَخُصّ به والديه؛ فمُسَيِّرُ الشَّرِكة كان قد وصل إلى الدّرَج، ووضع ذقنه على جانب من الدّرابزين، مُصَوِّبًا نظرةً أخيرة إلى الخلف. وتَحَفَّزَ غريغور للقيام بانطلاقة تَكْفُلُ له اللحاقَ به، ولا شكّ أنّ مُسَيِّرَ الشّركة شكّ في أنّ أمرًا ما يُوشِكُ أن يقع، فقد نزل عِدّة درجات، بقفزةٍ واحدة، ثمّ اختفى؛ ومع ذلك، سُمِعَ منه صوتٌ تَرَدَّدَ في أرجاءِ بئر السّلّم: «هُووه!». وللأسف، فقد ظهر أنّ فرار مُسَيّر الشّركة جعل الأب في حال من الاضطراب التّامّ، هو الذي كان قد بقي حتّى تلك اللحظة مسيطِرا على نفسه نسبيًّا، ذلك أنّهُ عوضَ أنْ يجريَ بنفسِهِ خلف المُسَيِّر، أو ألّا يَحُول، على الأقلّ، دونَ أنْ يقوم غريغور بذلك، أَخَذَ بيُمناه العَصَا التي تركَها المُسَيِّر على كُرْسِيٍّ مع قُبّعته ومعطفه، وتناولَ بِيُسْراه صحيفةً كبيرة الحجم كانتْ موضوعةً على المنضدة، وبدأ يُلَوِّحُ بالعصا وبالصّحيفة، وهو يضربُ الأرض بقدميه، ليطردَ غريغور ويجعلَه يعودُ إلى

غُرْفَتِه. ولمْ تَنْفَع غريغور تَوَسّلاتُه، بلْ وَلَمْ تُفْهَمْ حتّى، وكُلّما كانَ يُميلُ رأسَه أكثرَ، علامةً على انصياعٍ كامل، كانَ ضربُ قدمي أبيه الأرضَ يزدادُ عُنْفًا. وفي الطّرفِ الآخر كانت الأمّ قد فتحتْ نافذةً على مِصْراعيها، رغم الجوّ البارد، وانحنتْ عبْرها ضاغِطةً وجْهَهَا بكفّيها ودافعةً برأسِها بعيدًا إلى الخارج. وفيما بين الشّارع وبئر السُّلّم، تكوّن تيارٌ هوائيّ قويّ، جعل السّتائر تتماوج إلى داخل الغرفة، والجرائدَ تُحفحف، وبعضَ أوراقِها يتطاير من على المنضدة وينتثر على الأرضيّة. وبلا رحمة، كان الأب يَحْمِلُ على غريغور، وهو يَفحّ مثلما متوحّش، ليقسره على التّراجع.

ولكنّ غريغور لم يكن قد اكتسبَ مِرانًا على السّير متقهقرًا، ولذا فإنّ حركته كانتْ شديدة البطء. فلو أُذِنَ لهُ، فحسبُ، بِأن يقوم بنصف دورة، إذنْ لتمكّنَ من الوصول إلى غُرْفَته في غَمْضة عين، ولكنّه كان خائفًا من أنْ يفقِدَ الأبُ صَبْرَه أثناءَ دورانِه هو إلى الوجهة الأخرى، والعصا كانتْ تَتَهدَّدُه في أيّ لحظة بضربةٍ قاتلة على الظّهر أو الرّأس. غير أنّه، في النّهاية، لم يعدْ لديه خِيار، فقد أدرك مُرْتعبًا أنّه، في تقهقره، لمْ يكن يدري حتّى كيف يُحافِظُ على تَوَجُّهِه! وإذن، فمن دون أنْ يَكُفَّ عن توجيه نظراتٍ جانبيّةٍ جَزِعة إلى أبيه، باشَرَ الدّوران بأسرع ما يستطيع؛ ولكنّ حركته، في الواقع، كانتْ شَديدة البُطء. وربّما لاحظ الأبُ حُسْنَ نِيّتِه، فهو لمْ يُضايِقه أثناء قيامه بالدَّوْرَة، بل كان يُوَجِّه دورانَه، من بعيد، بطرفِ عصاه. ليتَ ذلك الفحيح الذي لا يُحتمل لم يَصْدُرْ عن أبيه! ذلك الفحيح الذي كان يجعل غريغور يفقدُ صوابَه

كُلِّيّةً! كان غريغور قد أنجز نصف الدّورة اللازم تقريبًا، لكنّ فحيح الأبِ الذي كان لا يزال مِلْءَ أذنيه جعله يُخطئ ويتراجع قليلا إلى الوراء. ولكنْ، إذْ أصبح رأسُهُ، أخيرًا، قبالةَ المصراع المُنْفتِح، بدا أنّ جسدَه كان أعرض من أنْ يَستطيعَ النّفاذَ عبره بِيُسْر. وبالطّبع، فإنّ فكرَة فتحِ المصراع الآخر قليلا، على سبيل المثال، لِتمكين غريغور من اجتياز المدخل، لم تكنْ لِتَعِنَّ للأب وهو في تلك الحالة الذّهنية. فذهنُهُ كانتْ قد استبدّتْ به فكرة ثابتة، مفادُها أنّ على غريغور أنْ يعودَ إلى غرفته بأسرعَ ما يُمكن. ولم يكنْ قطعًا ليتقبّلَ أن يترك غريغور يُباشِر التّدابير المُعقّدة التي لا بُدَّ له منها لِكَيْ ينتصبَ قائمًا ويُحاولَ أنْ ينفُذَ عبر الجانب المفتوح من الباب. بل إنّه، على العكس، كانَ يسوقُ غريغور أمامه، بلا هوادة وبصخبٍ شديد، وكأنّما لم يكن هنالك أمام هذا الأخير أيُّ عائق. وما أصبح غريغور يسمعُهُ خلفه لم يعدْ صوتَ أبٍ فحسب. الآنَ، إذنْ، ما عاد هنالك مجالٌ للمزاح؛ ولذا فإن غريغور قَسَر نَفْسَه على التّقَدُّم نَحْوَ الفتحة المُتاحة للعبور إلى غرفته، ولم يعد واردا أنْ تُوقِفَه المخاطر. هكذا ارتفع جانبٌ من جسده إلى أعلى، فإذا به مائل بين طرفي المدخل، وكُشِطَ أَحَدُ جَنبيه في أكثر من مكان، فانتشرتْ على الباب الأبيض لطخاتٌ شنيعة. وسرعان ما وجد نفسه محبوسًا، ولم يعد يستطيعُ أن يتحرّك. فقوائمه الصّغيرة التي كانت على جانبٍ من الباب، بقيتْ مُعَلَّقةً إلى الأعلى، وتلك التي كانتْ على الجانب الآخر، كانتْ مُنْضغِطةً على الأرضية بصورة مؤلِمة. في تلك اللحظة، وجّه إليه أبوه، من الخلف،

ضربةً عنيفةً، خلّصَتْه حقًّا، فقد طيَّرَتْهُ إلى منتصف الغرفة، حيثُ هبطَ وهو ينزِف دمًا. وبدفعةٍ عنيفة بالعصَا، أُغْلِقَ بابُ الغُرفة وراءَه؛ ثُمّ، أخيرًا، سادَ السّكون.

❑❑❑

II

لم يستيقظ غريغور من نومه الثَّقيل، الشّبيه بالإغماء، إلا أوانَ الغروب. وحتّى لو لمْ يَكُنْ هنالك مَنْ أزعجه، فهو، لا شكَّ، كانَ على وشك أنْ يستيقظ. كان قدْ شَعَرَ، بالفعل، بأنّ في قِسْط الرّاحة الذي حَصَّلَهُ الكفاية، وأنّهُ نال حظًّا وافِرًا من النّوم. ومع هذا، فقدْ أَحَسَّ كما لوْ أنّ خُطْوَةً خَفيفةً، مُسرِعَةً، وصَوتَ غَلْقٍ حَذِرٍ لباب غرفته المُفْضِي إلى الرّدهة، هما اللذان أيقظاه من نومه. كانتْ مصابيحُ أعمِدة الشّارع الكهربائيّة تنثُرُ على السَّقف وبأعلى قِطَعِ الأثاث بُقَعَ ضوءٍ شاحبة، لكنْ في الأسفل، حيثُ غريغور، كانت العَتَمَةُ هي السّائدة. ببطء، متحسّسًا طريقه بقرني الاستشعار الممتدّيْن من هامته، المُتعثّرَيْن بعدُ في أداء مُهِمّتهما، واللذين اكتشف جَذْوَاهُمَا للتّو، تقدّم غريغور إلى حيثُ الباب، ليرى ما الذي كان قد حدث في تلك المنطقة. وبدا جنبه الأيسر، على امتداده، كندبة طويلة، تَمَطَّطتْ بشكل شنيع، ولذا، فقد كان يعرج بصفّي قوائمه. وعلاوة على هذا، فإنّ إحدى قوائمه الصّغيرة كانتْ قد أصيبتْ بجرح بليغ، خلال أحداث الصّباح ـ كان من باب المعجزة ألا تُصاب إلا هي ـ فأَصْبَحَ يَجُرُّها وراءه، وقد انعدم فيها نبضُ الحياة.

حين أصبح قبالة الباب، فحسب، لاحظَ أنّ ما اجتذبه إلى حيثُ هو، كانتْ رائحةَ طَعامٍ ما. وبالفعل، كانتْ هنالك صَحفة صغيرة، مملوءة بالحليب المُحلّى بالسُّكَّر، المغموسةِ فيه قطعٌ صغيرة من الخبز الأبيض. وكان على وشك أن يضحك من الفرح، ذلك أنّ جوعَهُ قد تعاظمَ عمّا كانَ عليه في الصّباح، ثمّ إنّه غمس رأسَه في الحليب إلى أن انغمرتْ فيه عيناهُ تقريبا، لكنّهُ سرعان ما رفَعَه وقد شعر بالخيبة؛ لا لِأنّ الأكلَ أضحى عسيرًا عليه بسببِ جنبِه الأيسر المُصابِ فحسب ـ فبالفِعل، ما كان ممكنًا له أن يأكل من دون جهْدٍ يجعل النَّهيج يهزُّ جَسَدَه كُلّهُ ـ بل، أيضًا، لكونِ الحليب بعثَ فيه النُّفور. لقد كانَ الحليب، في الماضي، مَشْروبَهُ المُفَضَّل، وهذا، بلا شكّ، هو السّبب الذي جعل أخته تُحْضِرُهُ له، أمّا الآن فقد أدار رأسَه عن الصّحفة الصّغيرة، وهو شِبْه مُتَقَزّز، وزحف عائدًا إلى منتصف الغرفة.

في غرفة الجلوس، كما لاحظ غريغور ذلك من خلال فتحةٍ بالباب، كان المصباح الغازيّ مشتعلا، ولكنْ، إذا كان المعتاد هو أنْ يكون الأب، في مثل هذا الوقت، منهمكًا في قراءة الصحيفة التي تصدر فيما بعد الظّهيرة بصوتٍ مرتفع على مسامع الأمّ، والأختِ أيْضًا أحيانًا، فالآنَ لمْ تكنْ تُسْمعُ ولا نأمة. فلرُبّما كانت تلك القراءة، التي كانتْ أُختُه تُحدّثُه عنها باستمرار، وحتّى في رسائلِها، قد تمّ التّخلّي عنها كُلّية في الفترة الأخيرة. ولكنّ الصّمت التّامّ كان مُخَيِّمًا على كلّ أرجاء الشُّقّة، رغم أنّ هذه الأخيرة لم تكن بالتّأكيد فارغة من الأحياء. «مع ذلك، فيَا لَها

من حياةٍ هادئة تلك التي تعيشُها عائلتي!»، قال غريغور في نفسِه، ونظراتُهُ مُصَوّبةٌ إلى الأمامِ، إلى الظّلام المُخَيِّم، وكان يشعُرُ بفخر شديد لكونه استطاع أنْ يضْمَنَ لوالديه ولأختِهِ حياةً من هذا القبيل، في شُقَّةٍ بهذا الجمال. لكنْ ماذا لو أنّ هذا الهدوء، وهذا الرّفاه، وهذا الشّعورَ بالارتياح، شَهِدتْ نهايةً مُرْعِبة؟ لئلّا يَتْرُكَ غريغور أفكارًا من هذا القبيل تتقاذفه، بدأ يذرعُ أرجاءَ الغُرفة زَحْفًا في كُلّ الاتّجاهات.

في لحظةٍ ما، خلال هذا المساء الطّويل، وُورِبَ قليلا أحدُ البابين الجانبيين، ثمّ الآخر، وبِسُرْعةٍ أُعيدَ إغلاقُهما، فلا شَكّ أنّ أحدهمْ استشعر رغبةً في الدّخول، ولكنْ كانَ لديْهِ من الهواجس ما جعله يُحجِم عن ذلك. تَسَمَّر غريغور بالقُرْب من الباب المُفْضِي إلى الرّدهة، عاقِدًا العزم على إدخال ذلك الزّائر المُتردّد، بطريقةٍ أو بأُخرى، أو أن يعرف على الأقلّ من يكون؛ إلّا أنّ أحدًا لَمْ يُوارب البابَ من جديد، ولذا كان انتظارُ غريغور بلا جدوى. في أوّل النّهار، حين كانت كُلُّ الأبوابِ مغلقةً بالمفاتيح، كان الجميع يريدون الدّخول، والآن، بعد أن فَتحَ هو واحِدًا، وتمّ فتحُ اثنين بعد ذلك، كما هو بَيِّن، ما عادَ أحدٌ يأتي، بل إنّ المفاتيح، في الخارج، تُرِكتْ في فَتَحاتِ الأقفال.

لـمْ يُطْفأ الضّوء في غرفة الجلوس إلا في وقتٍ متأخّرٍ من الليل، ولم يكن صعبا، آنئذٍ، ملاحظةُ أنّ الوالدين والأخت كانوا قد بقوا مستيقظين حتّى تلك السّاعة، ذلك أنّ حركةَ ابتعادهم على رؤوس الأصابع كانتْ مسموعةً بوضوح. والآن، كان مؤكّدًا أنه،

حتّى الصّباح، لن يأتيَ أحدٌ لرؤية غريغور؛ لقد كان أمامَه، إذن، مُتَّسَعٌ من الوقت ليُفَكِّرَ، دون مُضايقةٍ من أحد، في الطّريقة التي ينبغي أنْ يتّبعها، من الآن، ليُنْشِئَ لحياتِهِ نظامًا جديدًا. لكنّ الغرفة الكبيرة، عاليةَ السّقف، التي كان مُضطرًّا إلى التّمدُّدِ فيها على بطنه سبّبتْ له شعورًا بعدم الطّمأنينة لمْ يجدْ لهُ تفسيرًا واضِحًا، ذلك أنّها كانتْ غُرفتَه التي يقيمُ فيها منذ خمس سنوات ـ وبحركة ليستْ شعوريّةً تمامًا، دَلَف، بشيءٍ من الخجل، إلى تحت الأريكة، وهنالك، بالرّغم من بعض الضّغط الذي يرزح تحته ظهرُه ومن أنّه لم يكنْ بمقدورِهِ أنْ يرفَعَ رأسَه، شَعَرَ على الفور أنَّهُ شديدُ الارتياح، وكانَ منبعُ أسفه الوحيد هو أنّ جسمَه كان أعرضَ من أن يُحْشَرَ كُلّه تحت الأريكة.

وهنالك قضى تمامَ ليلته، فَتارةً كانَ ينصرف إلى نومٍ غير عميق، يجعله الجوع، بين الفينة والأخرى، يستيقظ منه وهو يرتعِدُ، وطَوْرًا، كانَتْ تتوالى عليه الهواجس والآمال الغامضة، وكُلُّها كانتْ تُفْضي به إلى ضرورة أن يحافِظَ على هدوئه، وأنْ يصْبِر ويبدي تجاه أسرته عناية فائقة، كي يجعلها قادرةً على احتمال المُنَغِّصات التي لا بُدَّ من أنْ يُسَبِّبَها لها وهو في حالته الرّاهنة.

مع أولى تباشير الصّباح، والليل ما يزالُ مُخَيِّمًا تقريبًا، تسنّى لغريغور اختبارُ قوّة عزمه على تطبيق تلك القرارات، فقد فتحت الأخت باب الغرفة المفضي إلى الرّدهة، وهي في كامل ثياب النّهار تقريبًا، وأجالتْ نظرها فى الغرفة بتلهّف، ولم تقع عليه

عيناها على الفور. ولكنّها حين أبصرته تحت الأريكة ـ لازمٌ، بحقّ الله، أن يوجد في مكانٍ ما، فليس سهلا عليه أن يكون قد طار ـ أصيبتْ بذُعْرٍ جعلها تَفْقِدُ السّيطرة على نفسِها وتَصْفِقُ الباب، مُغْلقةً إيَّاه بعنف. ولكنها، وكأنّما شعرتْ بالنّدم على تصرُّفِها ذاك، سارعتْ إلى فتح الباب مُجَدّدا ودخلتْ على رؤوس أصابعها، كأنّها تدخل إلى غرفةِ مريضٍ تفاقمَتْ حالُه، بل وإلى غرفةِ شخصٍ غريب. كان غريغور قد تقدّم برأسِه حتّى تحت حافَة الأريكة وأنشأ يراقِبُ الأخت. هل ستلاحظ أنّه لم يمسَس الحليب مع أنّ الجوع لم يكن ما ينقُصه، فتأتيَهُ بشيء آخر يؤكَل، يكونُ أكثَرملاءمةً له؟ وإنْ لم تقم بهذا من تلقاء نفسِها، فسيكون الموتُ جوعًا أهونَ عليه من أنْ يقوم هو بإثارة انتباهها إلى ما ينبغي أنْ تقومَ به، رغم أنّه استشعر حاجة مُلِحّة في أن يهبّ من تحت الأريكة ويمضي ليرتمي على قدمي الأخت ويتوسّلَ إليها أن تمدّه بشيء مِمّا يَطيبُ أكلُه. لكنّ أختَه لاحظتْ، على الفور، وباندهاش، أنّ الصّحفة الصّغيرة كانتْ ملأى ما تزال، وإن انسكبَ حولها قليلٌ من الحليب. سارعت الأخت إلى التقاط الصّحفة الصّغيرة، وتفادتْ، قَصْدًا، لمْسَها بيديها، بِأن استعملتْ خرقةً لِحَملها، ثمّ مضتْ بِها. وكان غريغور شديد التّطلُّع لرؤية ما كانتْ أختُه ستجلبه مكانها، ونَسَجَ حول المسألة العديد من التّصوّرات المتباينة. ولكنّه لمْ يسْتطِعْ تَخَيُّل ما كانت الأخت، مدفوعةً بطيبتها، بصدد الإقدامِ عليه. فلكي تختبر ذوقه، جاءتهُ بمجموعة أطعمة، موضوعة فوق جريدة قديمة. كان هنالك بقايا

خضرٍ قديمة نصف عفنة؛ وعظامٌ من عشاء الليلة الفائتة، في مرقٍ أبيض متجمّد؛ وبعض الزّبيب واللوز؛ وقطعة جبن كان غريغور قد اعتبرها، قبل يومين، غير صالحة للأكل؛ وقطعة خبز يابسة، وأخرى مدهونة بالزّبدة، وثالثة مدهونة بالزُّبْدَة ومُمَلَّحة. وأضافتْ إلى كُلّ هذا الصّحفةَ الصّغيرة، التي بدا أنّها خُصِّصَتْ لغريغور بشكل نهائيّ، وقد صبّتْ فيها ماءً. وبدافع من رقّة شعورها، انصرفتْ بسرعة إلى خارج الغرفة ـ فقد أدركتْ أنّ غريغور لن يأكل أمامها ـ بل وأغلقت الباب بالمفتاح، ليعرف أنّ بإمكانه أن يتصرّف على هواه، وبالصّورةِ التي تُشعره بالارتياح التّامّ. وارتعشتْ قوائم غريغور الصّغيرة وهو يتقدّم نحو الطّعام. ولا شكّ أنّ جراحه كانتْ قد اندملتْ، فهو لم يشعر بما يعوقُ حركته. استغرب الأمر، وتذكّر أنّه قبل أكثر من شهر، كان قد جَرح إصبعه جرحا طفيفا بسكّين، وأنّ ذلك الجرح، حتّى أوّل أمس، كان يُسَبِّبُ له ألمًا فِعْلِيًّا. «أتكونُ قدرتي على الإحساس قد تدنّت الآن؟»، فكّر وهو يَمُصُّ، بتلهُّفٍ، قطعة الجبن، التي كانت قد استثارتْه بشِدّة، وبِشكْلٍ فَوْرِيّ، قبل أيٍّ من الأطعمة الأخرى. ودونَ تَوانٍ، وبعينين ترقرقتْ فيهما دموعُ الارتياح، أتى على الجبن، ثمّ أَتْبَعَهُ الخضرَ والمرق؛ أمّا المأكولات التي لم تكن بعدُ قد تعفَّنَتْ، فلمْ تجتذبهُ، بل إنّه لمْ يحتملْ حتّى رائحتها، ولذا كان يسحب ما يرغب في أكله فيبعده عنها قليلا. كان، إذنْ، قد انتهى من الأكل منذ وقت، وبقي في مكانه، متمدّدًا في كسل، حين أدارتْ أختُه المفتاح في فتحة القفل، متأنّيةً، بهدفِ أن

ينسحبَ هو. وقد قفز مرتعبًا، إذ إنّهُ كانَ شِبْهَ نائم، وسارع إلى العودة إلى مكانه تحت الأريكة. ومن أجل أن يبقى تحتها، وَلَوْ للوقت الذي تلبّثت خلاله الأخت في الغرفة، والذي لم يكن طويلا، فقد كان عليه أنْ يَقْسِرَ نفسه حقًّا وأن يبذل في ذلك جهدًا بالغا، فالأكلة الجيّدة كانتْ قد زادتْ في حجم جسده بعض الشّيء، ممّا جعل التنفّس يَصْعُبُ عليه في ذلك المكان الضّيّق. كان، بين لحظة وأخرى، يشعر ببعض الاختناق، وجحظتْ عيناه قليلا إذْ رأى أخته، بكلّ تلقائيّة، تستعملُ مكنسة، لا لجمع بقايا ما تناولهُ من طعام فحسب، بل وحتّى المأكولات التي لم يلمسْها، كما لو أنّها أصبحتْ، هي أيضًا، غيرَ نافعة. وبلا توانٍ، زجّتْ بما جمعتْه في سطلٍ غطّته بغطاءٍ خشبيّ، ثُمّ انصرفتْ حاملةً إياه إلى الخارج. وبمُجرّد ما أولت غريغور ظهرَها، بادر هو إلى الانسلال من تحت الأريكة، ثمّ تمطّط وتكوّر.

بهذه الصّورة أصبح غريغور يحصل على الطّعام في كلّ يوم، مرّة في الصّباح، إذ يكون والداه والخادمة ما يزالون نائمين، ومرّة ثانية بعد أن يكونوا جميعًا قد تناولوا غداءهم، فوقتَها كان الوالدان يَقِيلان لهنيهة، وكانت الخادمةُ تُرْسَلُ من طرف الأخت إلى الخارج لقضاء حاجةٍ ما. ولا شكّ أنّ الوالدين، بدورهما، لم يكونا راغبين في أن يموت غريغور من الجوع، لكنْ ربّما لم يكن بإمكانهما احتمالُ ما يتعلّق بطعامه إلا عن طريق السّماع، وربّما، أيضًا، كانت الأخت تبتغي أن تجعلهما يتفاديان غَمًّا إضافيًّا، مهما يكن طفيفًا، ذلك أَنّهما كانا يعانيان، أصلا، بما فيه الكفاية.

أيُّ التَّعِلّات اعْتُمِدتْ لِلتّخلّصُ من الطّبيبِ ومُصلحِ الأقفال وجعلِهِما يُغادِران المنزل خلال الصّبيحة الأولى؟ ذلك ما لم يتمكّنْ غريغور من أن يَعرفه؛ فإذْ لم يكن الآخرون يفهمونه، لمْ يدرْ بِخَلَد أحدٍ منهم، حتّى ولا أخته، أنّ بإمكانه أن يفهمهم. ولذا كان عليه، حين تكون الأخت في غرفته، أنْ يكتفي بِسماعِها وهي تُصَعِّد الزّفرات وتتضرّع للقدّيسين. وكان لا بُدّ من مرور وقت يتيح للأخت أنْ تعتاد الأحوال الجديدة قليلا ـ فلم يكن واردًا طبعًا أنْ تعتادها كُلّيّةً ـ، حتّى يتسنّى لغريغور أن يلتقط ملاحظةً منها تنمّ عن وُدٍّ، أو يُمكنُ أنْ تُؤَوّل على أنّها كذلك. «إذن فقد لَذّ لهُ الطّعام اليوم»، كانتْ تقول حين لا يُبْقي غريغور على شيء من طعامه، أمّا في الحالة المعاكسة، التي بدأتْ تُضبح، شيئًا فشيئًا هي السّائدة، فقد كانتْ تُعَلّق بنبرةٍ شبه حزينة: «ها كُلُّ شيءٍ قد بقي كما كان مرّةً أُخرى».

لكنْ إن لمْ يكن بإمكان غريغور أنْ يَسْتقي أيَّ خبر بشكل مباشر، فإنّه كان يلتقطُ الكثير من الغرف المجاورة التي يسترقُ إليها السّمع، فما إنْ يسمعَ صوتًا حتّى يهرعَ إلى الباب الذي جاءَهُ الصّوتُ من ورائه، ويلتصقَ به بكامل جسمه. خلال الأيّام الأولى على الخصوص، لمْ يكنْ هنالك ولا حديثٌ واحد لا يدور حوله، ولو بشكلٍ غير صريح. وطيلة يومين، كانت ثمّة مداولات، في أوقات تناول الوجبات، حول الطّريقة التي ينبغي التّصَرّفُ بها في الحاضر. بل حتّى في ما بين الوجبات، كانَ يَتمّ التّطَرُّقُ إلى الموضوعِ نفسِه، ذلك أنّهُ كان هنالك في الشّقّة،

باستمرار، فردان من العائلة على الأقلّ، فلا شكّ أنّ أَحدًا من أفرادها لم يكنْ يرغبُ في البقاء في الشّقّة وحده، كما أنّ بقاءَها فارغةً منهم أجمعين لم يكن وارِدًا بأيّ حالٍ من الأحوال. وعِلاوةً على هذا، ففي اليوم الأول نفسه، بادرت الخادمة ـ التي لم يكن أحد يدري هل هي على علمٍ بِشيءٍ مِمّا حدث، ولا ما يمكن أنْ تكون عليمةً به بالتّحديد ـ إلى التّوسّل، وهي جاثيةٌ على ركبتيها، إلى أمّ غريغور بأنْ تُعفِيَها من عملها على الفور، وحين أزِفتْ لحظةُ التّوديع، بدأتْ تتلفّظُ بتعابير الشُّكر على السّماح لها بالذّهاب إلى حال سبيلِها والدّمع ينهلُّ من عينيها، كما لو أنّ الاستغناء عنها كان أعظمَ جميلٍ أُسْدِيَ إليها في هذا المنزل؛ ثمّ أقسمتْ، دون أنْ يَطلبَ منها أحدٌ ذلك، قسمًا رهيبًا، بألّا تقول أيَّ شيءٍ عمّا حدث لأيّ كان.

انطلاقًا من تلك اللحظة، أصبحت الأخت مكلّفةً أيضًا بالطّبخ، رفقةَ أُمّها؛ وفي الواقع، فإنّ مهمّتهما تلك لمْ تكن تُسَبِّبُ لهما عناءً، ذلك أنّ أحدًا لم يكن يأكل شيئًا يُذكر. لقد كان غريغور يسمع الفرد من بينهم وهو يشجّع الآخر على تناول الطّعام، لكنّ ذلك التّشجيع لم يكن بذي جدوى، وكان الجواب عليه لا يعدو: «شكرًا، لقد اكتفيت»، أو شيئًا من هذا القبيل. ولربّما لم يكونوا أيضًا يشربون. فكثيرًا ما كانت الأخت تسأل الأب إن كان يرغب في شرب بيرة، وتَعْرِض عليه بلطف أن تَخْرُجَ لجلبِها له بنفسِها، وإذْ كان الأب لا يَردّ، كانت هي تقول، لِتُبْعِدَ عنه أيَّ هاجس، إنّ بإمكانها أيضًا أن ترسل بَوّابة المبنى

لذلك الغرض، لكنْ، في نهاية المطاف، كان الأب يتلفّظ، بصوتٍ جهوريّ، ب«لا» جازمة، تُنهي الموضوع بِرُمّته.

في اليوم الأوّل نفسه، كان الأب قد قدّم عرضًا مُفَصّلا للأمّ، وللأخت أيضًا، عن الوضع الماليّ للعائلة، وعمّا يتبدّى في الأفق على هذا الصّعيد. وبين الفينة والأخرى، كان ينهض من جَلْسته خلف المنضدة ويمضي حتّى الصّندوق الفولاذي الصّغير ـ صُنْع فِرتْهَايمْ ـ الذي كان قد استطاع إنقاذَه، قبل سنوات خمس، حين انهارتْ مؤسّسته التّجارية، ليُخرجَ منه سَنَدًا ما أو سِجِلاًّ. وكان الصَّوتُ الذي ينجم عن فَتْحِه للقفل المعَقّد، ثمّ عن إغلاقه له بعد أن يكون قد أخرج الوثيقة التي يريد، مسموعًا بوضوح. كانت شروح الأب تلك تُشَكّل أوّلَ خبر سارّ، نوعًا ما، يصل إلى غريغور منذ أنْ أصبحَ رهينَ مَخْبِسه. ذلك أنّه كان يعتقد أنّ شيئًا لم يبقَ للأب من مؤسّسته السّابقة، ولمْ يكنْ أبوه قدْ قال له قطّ شيئًا ينْقضُ اعتقادَه ذاك، كما أنّ غريغور، من جهته، لم يكن قد فاتحه في هذا الموضوع. ففي تلك الأيّام، كان همّ غريغور الأوحد هو أنْ يبذل قُصارى جهده ليجعل الأسرة تنسى، بأسرع ما يمكن، الكارثة التي عصفتْ بمؤسّستها التّجاريّة وجعلت اليأس يُخَيّمُ عليها. وإذن فقد انصرف إلى العمل بحماس شديد، وخلال وقت قصير أمكنه أنْ يُصبِح مُنتدبًا تجاريًّا مُتجوّلا بعد أنْ كان مُجَرّدَ مُستخدَم بسيط، الأمر الذي أتاح له إمكانيات جديدة لكسب المال، كما أنّه بدأ يُحَصّل، بشكل فوريٍّ، عُمُولاتٍ عن إنجازاته الجيّدة في نطاق عمله، أيْ نقودًا يمكنُ وضعها على الطّاولة،

أمام أنظار أفراد الأسرة الذين يندهشون ويسعدون بها. تلك كانتْ فترةً سعيدة، لمْ تتكرّرْ قطّ فيما بعد، على الأقلّ بالرّوعة التي وَسَمَتْها، علْمًا بأنّ غريغور، حتّى بعد تلك الفترة، كان يكسب من المال ما يُخَوّل له أنْ يتكفّل بمصاريف الأسرة كاملةً، وبالفعل كان يتكفّل بتلك المصاريف. كان باقي أفراد الأسرة، مثلما غريغور نفسه، قد تعوّدوا على أنْ تتمّ الأمور بتلك الصّورة: فهم يقبلون منه النّقود بامتنان، وهو يقدّمها لهم عن طيب خاطر، لكنّ حرارةَ العاطفة كانتْ تتناقص في تلك الأثناء. وحدها أختُ غريغور بقيتْ، مع ذلك، قريبةً منه، وكان له هو مشروعه السّرّي بخصوصها: فقد كانت، على العكس منه، تعشق الموسيقى، وعزْفُها على الكمان كان يُحَرِّك المشاعر؛ وكانت لديه الرّغبة في إرسالها إلى المعهد الموسيقيّ، في السّنة الموالية، رغم النّفقات الضّخمة التي ستترتّب بالضّرورة عن ذلك، على أن يتم تدبُّرُ سَدِّ الثّغرة التي ستنجُمُ عن تلك النّفقات، بصورةٍ أو بأخرى. خلال الفترات الوجيزة التي لم يكن غريغور يقوم خلالها بجولاته المهنيّة، كان قد جرى ذِكْرُ المعهد الموسيقِيّ في أحاديثِه مع الأخت مرّاتٍ عديدة، لكنْ باعتبار أنّ الانتساب إليه يبقى حلما جميلا مستحيلَ التّحقّق، ولم يكن الوالدان يُحبّذان حتّى أنْ يسمعا ذلك الحديثَ غيرَ المُغْرِض؛ إلّا أنّ غريغور كان يُفَكّرُ في تحقيق ذلك الحلم بتصميم، وكان قد عَقَد العزمَ على أنْ يُعْلِن قرارَه، بصورةٍ مَهيبة، خلال الاحتفال بعيد الميلاد.

كانت مثل هذه الأفكار، التي لم تعدْ لها أدنى أهمّية بعد أن

أصبحَ في حالته الحاضرة، تعبُرُ رأسَهُ وهو يسترِقُ السّمع منتصباً لِصْقَ الباب. أحيانًا كانَ يفقد القدرة على التّنَصّت من فَرْطِ التّعب الذي كان يستشري في بدنه، ويجعله يترك رأسَه ينحدر ويرتطم بالباب، لكنّه سرعان ما كان يسحبُه، فقدْ كانَ الصّوتُ الواطئ الذي ينتج عن الارتطام يُسْمَعُ في الغرفة المُجاورة ويجعلُ من فيها يصمتون. «يا تُرى ما الذي يقوم به هذه المرّة»، كان الأب يقول بعد لحظة، ولا شكّ أنّه كان يَستدير نحو الباب، وبَعْدَهَا فحسب، كانوا يعودون إلى حديثهم الذي قطعوه.

ولأنّ الأب كان كثيرًا ما يُكَرِّر شُروحه ـ نظرًا، من جهةٍ، لكونِهِ هو نفسه لم يكن قد رَكَّز اهتمامه، منذ زمن طويل، على هذه الأمور التي يتحدّثُ عنها في الحاضر، وأيضًا، لأنّ الأمّ لم تكنْ سريعةَ الفهم ـ فقد أُتيح لغريغور أنْ يُلَقَّنَ، مرّةً تلو أُخرى، أنّه رغم الكارثة، كان قد تبقّى شيءٌ من المال من تجارة الأب البائدة، شيءٌ زهيدٌ حقًّا، ولكن انضافتْ إليه الفوائدُ المستحقّة عنه، والتي تراكمتْ لزمنٍ وبقيتْ غيرَ ممسوسة. وعلاوةً على هذا، عرفَ أنّ النّقود التي كان يجلبها إلى البيت كُلَّ شهر ـ فهو لم يكنْ يحتفظ لنفسِه إلّا ببضعة غُولدْنَات ـ لم تكنْ قدْ صُرِفَتْ بِأَكْمَلِها، وقد تكوَّن مِمّا كان يُوَفَّر منها رأسمال صغير. وخلف الباب، كان غريغور يُحَرِّكُ رأسَه بحماسة، مبتهجًا بهذا التّجسّد لنزوعٍ غيرِ متوقّع إلى الحذر والادّخار. في الواقع، كان يمكنه أن يستعملَ هذا الفائض من النّقود في تسديد قسطٍ إضافيّ من الدَّيْن الذي لِمُشَغِّلِه على والده، وبِذلك يكون يومُ تخلّصه من هذا العمل قد

أصبح أكثرَ دنوًّا، لكنْ، في الحاضر، كانت التّدابير التي اتّخذها الأبُ هي الأفضل.

ومع هذا، يبقى أنّ ذلك المبلغَ لم يكن كافيًا بتاتًا لتعيش العائلةُ من الفوائد التي ستُحَصّلها مِنه؛ فهو، بتمامه، سيُمَكِّنُها فحسب من أن تَعُول نفسَها لِسنةٍ، أو، على الأكثر، لسنتين. إذنْ، فما ينبغي هوَ أنْ يُتركَ جانبًا تحسّبًا لضَرورةٍ ما قُصْوى، وألّا يُنتَقَصَ منه شيءٌ بتاتًا. أمّا ما يتطلّبه العيش من نقود، فينبغي كسبُه. ولا شكّ أنّ الأب كان في صِحّة جيّدة، لكنّه شاخ، كما أنّهُ لم يشتغل الآن منذ خمس سنوات، ولم يَعُدْ وارِدًا أنْ يَعْتدَّ بقواه. فعلى امتداد هذه السنوات الخمس، التي كانت أوّلَ فترةِ راحةٍ نَعِمَ بِها بَعْدَ حياةٍ من العمل الشّاقّ وغيرِ المُثْمر، كان يزدادُ بدانةً، وبالتّالي، فقد أصبح ثقيلَ الحركة. فهل سيكون على أمّه العجوز، ربّما، أن تسعى إلى كَسْبِ المال، هي المصابة بالرّبو، التي يُضْنِيها مُجَرَّدُ التّنقّل دَاخِلَ الشّقّة، والتي تَقضي واحِدًا من بين كُلّ يومين جالسةً على الأريكة قربَ النّافذة المفتوحة، بسبب ضيق التّنفّس؟ أمْ أنّ الأخت هي التي سيكونُ عليها أن تكسب مالا، هي التي ما تزالُ طفلة، بأعوامِها السَّبْعة عشر، وما مِنْ أحدٍ سَيُعيدُ النّظر في أُسْلوب عيشها الذي يقضي بأنْ تكون ثيابُها جميلة، وأنْ تنامَ مُطَوّلاً، وأنْ تَمُدَّ يَدَ العون في الأعمال المنزليّة، وأنْ تُشارِكَ في بعض الأنشِطة المُسَلِّية المتواضِعة، وعلى الخصوص، أن تعزفَ على الكمان؟ وكُلّما عاد الحديثُ إلى ضرورة كسب المال، كان غريغور يُسارع إلى الانفصال عن الباب

ويلقي بنفسِه على الأريكة القريبة، بارِدَةِ الجِلْد، فقد كان يشعر بأنّ حرارة شديدة تنتشرُفي جسدِه من فَرْطِ الشّعور بالخِزْي والأسى.

كثيرًا ما كان غريغور يقضي الليل في وضْعه ذاك، من دون نوم، منصرفًا إلى هرْشِ جِلد الأريكة لساعات طوال. أحيانًا، كان لا يتراجع أمام ضرورة بَذْلِ مجهودٍ كبير جِدًّا للدّفعِ بِكُرْسِيٍّ ذي ذراعين حتّى النّافذة، ثُمّ يَمضي مُتسَلِّقًا إلى حافَتِها حيثُ يبقى، وقد أسْنَدَ ثِقلَه إلى الكرسيّ، منحنِيًا على زجاجِها، مُستغرِقًا بشكلٍ ظاهر في ضَرْبٍ من استذكارِ الإحساسِ بالحُرّية الذي كان يستشعره في الماضي، كُلّما نَظَرَ عَبْرَ النّافذة. ذلِكَ أنّه كان يفقد شيئا فشيئًا الرّؤية الواضحة حتّى للأشياء التي لا تكون جِدَّ بعيدةٍ عنه؛ فهو لم يعدْ بتاتًا يرى المستشفى المقابل، الذي كانَ ناظراه، فيما مضى، يقعان عليه بشكل شبه مستمرّ، حتّى إنّه دَأَبَ على أنْ يَكِيلَ له اللعنات. ولو لم يكن على علم بأنّه يسكن في شارع شارلوت، وهو الشّارع الهادئ والمديني كُلِّيةً، لَحسِبَ أن النّافذة تنفتح على خلاء قَفر تنطبقُ سماؤه الرّماديّة على أرضِه الرّماديّة فلا تتمايزان. وكان كافيا، بالنّسبة للأخت، المُتَنَبِّهة، أن تلاحظ وجود الكرسيّ ذي الذّراعين قُرْبَ النّافذة، لتبادر، كُلّما قامت بترتيب الغرفة، إلى إعادته إلى مكانه ذاك، بل إنّها أصبحتْ تتركُ مصراعي النّافذة الدّاخليّين مفتوحين.

لو أنّ غريغور كانَ على الأقلّ قادِرًا على التّحَدُّثِ إلى أخته وتقديمِ الشّكر لها على كُلّ ما كانتْ تفعلُه من أجله، لاسْتطاعَ أنْ

يتقبَّلَ خدماتِها بكامِلِ الارتياح، أمّا والوضْعُ على ما هو عليه، فقد كانتْ تلك الخدماتُ تَجعلُهُ يتألّم. حقًّا، كانت الأخت تحاوِل أنْ تطمسَ كُلَّ ما يمكن أن يُسَبِّبَ له إيلامًا في ما تقوم به، وبمرور الوقت كانتْ، طبعًا، تتوفّقُ أكثر في مسعاها. لكنّ مرور الوقتِ ذاك جَعَلَ غريغور أيضًا يُدْرِك الأمور من حوله بوضوح متزايد. فَمُجَرّدُ دخول الأخت كان، بالنّسبة إليه، مُرْعِبًا. وقد كانتْ، حالَما تدلف إلى الغرفة، وحتّى قبل أن تعيد غَلْقَ الباب من خلفِها ـ مع أنّها كانتْ حريصةً على أَنْ تُريح الآخرين من مَرْآى داخِلِ غرفةِ غريغور ـ تَهْرَعُ في اتجاه النّافذة، وتفتحُها ـ كأنّما تستشعِرُ اختناقًا وَشِيكًا ـ بحركةٍ عنيفة وسريعةٍ من يديها، وتبقى قُبَالتها لهنيهة، وهي تتنفّسُ بِعُمق، مَهْما تكن شِدّةُ البرودة في الخارج. وكان اندفاعُها المُتسرِّعُ ذاك، وما يُرافقه من جَلَبَة، يُسَبِّبان الرُّعبَ لغريغور مرّتين في اليوم. وكانَ يقضي وقتَ بقائِها في الغرفة مُرْتجفًا تحت الأريكة، ومدرِكًا، في الآن نفسِه، أنّها كانتْ سَتُغنيه عن هذا الوضع، لو أَمْكَنَها المكوث، من دون أن تفتح النّافذة، في غرفة يوجد بِها غريغور.

في أحد الأيّام ـ وكان قد مرّ نحو شهر على التّحوّل الذي حصل لغريغور، فلم يعد يُنْتَظَرُ من منظره، في نهاية المطاف، أنْ يباغِتَ الأخت ـ دخلتْ هي إلى غرفته قَبْل الوقتِ المعْهود بقليل، ووجدتْهُ وهو يُمعن النّظر عبر النّافذة، جامدًا، في وضعٍ يثير الخوف حقًّا. وما كان إحجامُها عن الدّخول لِيُدْهِشَ غريغور، باعتبارِ أنّه، في وضعه ذاك، كان لا يُمكِّنها من المُضِيِّ قُدُمًا لفتح

النّافذة. لكنّها لم تَمتنع عن الدّخول فحسب، بل وتراجعتْ أيْضًا إلى الخلف بسرعة وأغلقت الباب مُجدَّدًا؛ ولو رآها أثناء ذلك شخصٌ من خارج العائلة، لأمكنَ أن يعتقدَ أنّ غريغور كان قد كمنَ لها بُغْيَةَ عَضِّها. وبالطّبع، فإنّ غريغور قد مضى، على الفور، للاختباء تحت الأريكة، ولكنْ كان عليه أن ينتظرَ حتّى منتصف النّهار ليراها تعود، وهي أكثرُ اضطرابًا مِمّا اعتادتْ أنْ تكونَ عليه في الأيّام السّالفة. هكذا فَهِم أنّ رؤيتَها إيّاه كانتْ أمرًا لا تستطيعُ احْتِمَالَه ولنْ تستطيع، وأنّها، بالتّأكيد، كانتْ تبذُلُ جُهْدًا كبيرًا كيْ لا تفِرَّ حين يظهرُ لها جزءٌ ما من جسده، مهما كان صغيرًا، خارجا من تحت الأريكة. ولكي يُخَلِّصَها حتّى من هذا الاحتمال الأخير، نَقَلَ شرشف السّرير إلى الأريكة على ظهره ـ الأمر الذي اقتضى منه أربعَ ساعات ـ وَمَدَّهُ بصورة تجعل جسده يختفي بأكمله من ورائه، وهكذا لنْ تستطيعَ الأخت رؤيتَه بعد الآن حتّى لو حنتْ رأسَها. ولو أنّها اعتبرت الشّرشف غير ضَروريٍّ في مكانه الجديد، لبادرتْ إلى إزاحته، إذْ كان واضِحًا أنّ غريغور لمْ يكنْ يجدُ لذّة في أنْ يَعْزِلَ نفسَه بتلك الصّورة. لكنّها تركت الشّرشف حيثُ أصبح، بل إنّ غريغور اعتقد أنّه لَمَحَ في عينيها نظرةَ امتنان، في اللحظةِ التي رفع الشّرشف فيها برأسِهِ قليلا، باحتياطٍ أكيد، ليرى وَقْعَ التّدبير الجديد في نفسِها.

خلال الأُسبوعين الأوَّلين، لم يتشجّع الوالدان بما فيه الكفاية للدّخول إلى غرفة غريغور، وكان هو يسمعهما في كثير من الأحيان يُعَبِّران عن تقديرهما للعمل الذي أصبحت الأخت تقوم به

حاليا، بعد أنْ كانا، فيما مضَى، يُبديان لها الاستياء من كونها لم تكنْ نافعةً حقيقةً. ولكنّهما أَضْحَيَا الآن ينتظران، في الكثير من الأحيان، أمام غرفة غريغور، طيلةَ الوقت الذي تشتغل فيه الأخت بداخلها، وما إن تخرج منها، حتّى يكونَ عليها أنْ تُخبرهما بِدِقّة عن منظر الغرفة من الدّاخل، وعمّا أكل غريغور، وعنْ سُلوكِه في هذه المرّة وعمّا إذا لم يكن تحسّنٌ ما طَفيف قد طرأ عليه. أكثرَ من هذا، فإنّ الأمّ أبدتْ رغبتها في رؤية غريغور، بعد مرور وقت قصير، نسبيًّا، لكنّ الأبَ والأختَ حالَا بينها وبين ذلك، معتمدَيْن، في البدء، أدِلّة عقليَّة، كان غريغور يسمعُها جيّدًا ويُوافق عليها بلا تردّد. وقد توجّبَ، بعد ذلك، منعُها بالقوّة، ولمّا سمعها تقول لهما بصوت جهوري: «لكنْ دَعَانِي أرَ غريغور، إنّه ابْنِي، هذا التَّعِس! ألَا تفهمان أنّ عليَّ أنْ أراه؟»، فكّرَ أنّ دخول الأمّ إلى غرفته، لا كُلَّ يومٍ، بالطّبع، بل ربّما مرّةً في الأسبوع، قد يكون أمرًا حسنًا، في نهاية المطاف. ثُمّ إنّها تفهم كلّ شيْءٍ خيرًا من الأخت، فهذه الأخيرة، مع أنّها شجاعةٌ ولا شكّ، تبقى مُجرّدَ طفلة، بل ولرُبّما كان طيشُها الطّفوليّ هو الذي جعلها تختار الاضطلاع بهذه المُهِمَّة العسيرة.

ولم يتطلَّبْ تحقُّقُ رغبةِ غريغور في رؤية أمّه وقتا طويلا. فخلال النّهار، كان غريغور يتفادى الظّهورَ خَلْفَ النّافدة، مُراعاةً لشعورِ والديه على الأقلّ، لكنّه لم يكن يستطيع، مِنْ جهةٍ ثانية، أنْ يُجَرْجِرَ نفسَهُ طويلا على الأمتار المربّعة القليلة التي تُشكّلُ أرضيّةَ الغرفة، فحتّى خلال الليل، لم يكن البقاء ممدّدًا على الأرضِيّة بلا

حراك أمْرًا يسيرًا بالنّسبة إليه، كما أنّهُ كان قدْ كفَّ عن تحصيل أدنى لذّة منْ تناوُلِ الطّعام، وهكذا، ومن أجل التّرويح عن نفسِه، اكتسب عادةَ الزّحفِ في كُلِّ اتّجاهٍ على الجدران وَجَنباتِ السَّقف. وكان يروقُ لهُ بشكل خاصّ أن يتدلّى من السّقف، إذْ كان ذلك مختلفًا تمامًا عن التمدُّد على الأرضِيّة؛ فالتّنفُّسُ كانَ يُصْبِحُ أكْثَرَ انسيابًا؛ والجسد كان ينتابُه نوسانٌ خَفيف؛ وفي حال الشُّرودِ شِبهِ السّعيدِ التي يكون عليها في الأعلى، كان غريغور يتفاجأُ تمامًا حين يحدثُ أن يتفلّتَ جسدُهُ من السّقف ويسقط بقرقعة فوق الأرضيّة، على قوائمه الصّغيرة. وكانتْ سيطرتُه على جسده قد اشتدّتْ في الحاضر، طَبْعًا، وهكذا لَمْ يكنْ يلحقُه أذًى حين كان يسقط من ذلك العُلُوّ. وسُرعانَ ما لاحظت الأخت التّسْلِيَةَ الجديدة التي اجترحها غريغور لنفسِه ـ ذلك أنّهُ، في أثناء الزّحف، كان يتركُ، هنا وهناك، بُقَعًا دَبِقة ـ فجعلتْ نصبَ عينيها توسيعَ مجالِ زحفه بإزاحةِ قِطَعِ الأثاث التي تَحُدُّ من نِطَاقِ حَرَكته، أيْ، على الخصوص، الخزانة ومنضدة الكتابة. ولكنْ لم يكنْ بمقدورها أن تقوم بذلك دون مُعاون؛ ولم تكنْ تجرؤُ على طلب مساعدةِ أبيها؛ والخادمةُ الصّغيرة لا شَكَّ سترفض، فهذه الفتاةُ ابنةُ السّادسة عشرة كانت تتولّى مهامّها بشجاعة منذ تَسْريح الطّاهية السّابقة، ولكنّها كانتْ قدْ توسَّلتْ بأن يُسْمَحَ لها، من باب التَّفَضُّل، بأنْ تُبْقِيَ باب المطبخ مغلقًا باستمرارٍ بالمفتاح، فلا تفتحُه إلَّا حين يُوَجَّهُ إليها نداءٌ خاصٌّ، مُتّفَقٌ عليه؛ وإذن، فلمْ تستطع الأختُ سوى أن تلجأَ إلى طلب العون من الأمّ، في يوم كان الأبُ خلالَهُ

خارجَ البيت. وجاءت الأمّ، مطلِقَةً صيحاتٍ وقد اهتاجتْ من فَرْطِ الابتهاج، لكنّ صياحها كفَّ تمامًا إذْ وصلت إلى بابِ غرفة غريغور. بدأت الأخت، طبعًا، بالتحقُّقِ من أنّ غرفة غريغور في حال حسنة، وبعدها فحسب، تركت الأمّ تَدْخُل. وكان غريغور قد سارعَ إلى جذب الشرشف مُنْزِلًا طرفَه إلى أسفلَ ممّا كان عليه، جاعلا له مزيدًا من الثّنايا، بِحَيْثُ أَصْبَحَ يبدو كأنّه قد أُلْقِيَ به صُدْفَةً على الأريكة. وقد أحجم غريغور، في هذه المرّة، عن استراق النّظر من تحت الشّرشف؛ بل وزهَّد نفسَه في رؤية الأمّ خلال زيارتها الأولى هاته، ففرحتُه بمجيئها كانتْ عارمة. «يُمكنكِ أن تدخلي، إنّه ليس في مرمى البصر»، قالت الأخت، التي كانت، بالتّأكيد، تمسك بِيَدِ الأمّ. لحظتَها، سمع غريغور تينكَ المرأتين اللتين لا قوّةَ لهما تعملان على زحزحة الخزانة العتيقة، رغم ثِقَلِها، وسمع الأخت تُطالب، بشكل مستمرّ، بأن تتولّى هي أكثرَ المهامّ مشقّة، غيرَ مُولِيَةٍ اهتماما لتحذيرات أمّها التي خافت عليها من عاقبة عَرَامَة الجهد. واستمرّت محاولتهما وقتا طويلا حقًّا. وبعد ربعِ ساعةٍ كاملٍ من المجهودات، قالت الأمّ إنّه من الأحسن تركُ الخزانة حيثُ كانتْ، فهي، من جهة، ثقيلةٌ جدّا ولن تنتهيا من أمرها قبل عودة الأب، وإذا أُبْقِيَتْ في وسط الغرفة فستسدّ كلّ السّبل في وجه غريغور، ومن جهة ثانية، إذا أَخْلَتَا الغرفة من الأثاث، فليس مؤكّدًا أنّ ذلك سيروق غريغور، بل إنّها كانت تستشعر العكس. إنّ قلبَها كانَ ينقبضُ حقًّا لرؤيةِ الجدار عاريًا؛ فلِمَ لا يكون إحساسُ غريغور مماثلا لإحساسها، ما دام

قد أَلِفَ منذ زمن طويل وجودَ قطع الأثاث تلك، وكيف لا يَشْعُرُ، في غُرفة فارغة، بأنّه مُتَخَلًّى عنه؟ «ثُمّ أَلَنْ نبدو...»، قالت الأمّ في الأخير، مُسْتمرّةً في همسها كأنّما تريد أنْ تَحُول دون أنْ يَصِلَ صَوْتُها، فحسب، إلى غريغور الذي كانتْ تجهل مكان وجوده في الغرفة، ففيما عدا ذلك، كانت لديها قناعة بأنّه لا يستطيع، على أيّ حال، فَهْمَ ما يُقال مِن حَوْلِه. «ثُمّ أَلَنْ نبدو، ونحن نُخْلي الغرفة من قطع الأثاث، كأنّنا نتخلّى عن كلّ أمل في أن تتحسّن حاله، بل كأنّنا نُسْقِطُه من حسابنا بلامبالاة؟ أعتقد أنّ الأحسن هو أن نترك الغرفة كما كانتْ تمامًا، حتّى يجِدَ غريغور، حين يعود إلينا، كلًّ شيء كما كان، فيسهلَ عليه نسيانُ هذه الفترة»

لدى سماعه ما قالته أُمّه، أدرك غريغور أنّ الانعدام التّامّ لِلتّحادث المباشر مع أيّ إنسان والحياة الرّتيبة التي يعيشها في الوسط العائليّ، قد تسبّبا له بالتّأكيد، على امتداد هذين الشّهرين، في بلبلة الذّهن، وإلّا فكيف يُمْكنه أنْ يُفسّر لنفسِه بِكُلّ جِدّيّة تَوْقَهُ إلى رؤيةِ غرفته وقد أُفْرِغَتْ؟ أكان يرغبُ حَقًّا في أن يترك الغرفة الدّافئة ذات الفراش المُريح الذي ورثته عائلته تَنقلبُ إلى كهف، يُمكنه حقًّا أنْ يزحف فيه، كما يحلو له، في كلّ الاتّجاهات، ولكنّه سينسى فيه، أيضًا، وبشكل سريع، ماضِيَه الإنسانيّ بأكمله؟ ذلك أنّهُ كان، في الواقع، على وشك أن ينساه، ووحده صوتُ أمّه، الذي لم يسمعه منذ وقت طويل، هزّه وأيقظ ذاكرته. يجِبُ ألّا يُخْرَج أيُّ شيء، كلُّ ما في الغرفة يجب أن يبقى. فَلِقِطَع الأثاث هاته أثرها الطّيّب على حالته، الضّروريُّ له، وإذا ما

كانتْ تُشكّلُ عائقًا لِزحفه عَديمِ الجدوى، فذلك لا يَضيرُهُ، بل، على العكس، يَنفعُه كثيرًا.

لكنْ، للأسف، كانَ لأختِه رأيٌ مختلف؛ فهي كانتْ قد تعوّدتْ، وليس من دون مبرّرات، أنْ تعتبر نفسها صاحبة الخبرة في شؤون غريغور، لا يُضارِعُها في ذلك أيٌّ من والديها؛ ولذا فاقتراحُ الأمّ، في تلك اللحظة، كان كافيًا لِجَعْل الأخت تُصِرّ على إخراج، لا الخزانة ومنضدة الكتابة وحدهما كما كانتْ قد فكّرتْ في أوّل الأمر، بل كلّ قطع الأثاث باستثناء الأريكة الضروريّ بقاؤها. طبعًا، لم يكنْ دافعُها إلى ذلك الإصرار هو، فحسب، التّحدّي الطّفولي وتلك الثّقة في النّفس التي كانت قد اكتسبتْهَا، منذ وقت قريب، بمشقّة وعلى غير توقّع؛ ذلك أنّها كانت، بالفعل، قد لاحظتْ أنّ غريغور في حاجة إلى مكانٍ فسيح ليزحفَ فيه، فيما لَمْ يَكُنْ، حسب ما يظهر للعِيَان، يستعملُ بتاتا قطع الأثاث. ولَرُبّما يكون في ذلك الإصرارِ مِنْ طَرَفِها دَوْرٌ للشّعور الحماسيّ الذي تتميّزُ به الفتياتُ اللواتي في مثل سِنِّها، والذي يتوخّى الإشباع في أيّما مناسبة. وهكذا، يكون ذلك الشّعور هو الذي أفعم غُرِيتِه بتلك الرّغبة في مُفاقَمةِ وضعِ غريغور الرّهيب، حتّى تتمكّنَ مِنْ أنْ تُغْدِقَ عليه مزيدًا من الرّعاية. إذْ من الواضح أنّ غريته وحدَها، دون سِواها، هي التي ستجرؤ على الدّخول إلى غرفةٍ يكونُ غريغور هُوَ سيّد جدرانها العارية.

وإذن، فقد تمسّكتْ برأيها رغما عن أُمّها التي بدت غير واثقة من نفسها، بسبب ما بثّتْهُ فيها تلك الغرفة من مشاعر الخوف.

وسرعان ما لاذت الأمّ بالصّمت وشرعتْ مُجَدِّدًا في مساعدة الأخت، بأقصى ما تستطيع، على دَفْع الخزانة لإخراجها. على أيّ حال، فغريغور يُمكنُه الاستغناءُ عن الخزانة إن لزم ذلك، لكنّ منضدةَ الكتابة، يجب أن تبقى. وما إنْ خرجت المرأتان من الغرفة، وهما تدفعان الخزانة مُتأوّهتين، حتّى أطلّ غريغور برأسِه من تحت الأريكة، مُحاوِلا إيجاد طريقةٍ ما للتّدخّل، حذرةٍ وفيها كُلّ اللياقة المُمكنة. ولكنّ سُوءَ الحَظّ شاء أنْ تكون الأمّ هي السّبّاقة إلى العودة، فيما كانت غرِيتِهْ، في الغُرفة المجاورة، تُطَوِّقُ الخزانة بذراعيها وتجعلها تتهزهز في هذا الاتّجاه وذاك، من دون أنْ تتمكّن من تحريكها من مكانها. لكنّ الأمّ لم تكنْ قد تعوّدتْ على مظهر غريغور، وكان ممكنًا أنْ تَمْرَضَ إذا رَأَتْه، وَلِذا خاف غريغور وسارع إلى التّراجع، متقهقرًا، حتّى أسفل الطّرف الأكثر انزواءً من الأريكة، لكنّه لم يستطع أن يَحُولَ دون أن يهتزّ الشّرشف قليلا في الجهة الأماميّة. وكان هذا كافيا لإثارة انتباه الأمّ. فَأمسكتْ عن الحركة، وتسمّرَتْ في مكانها للحظة، ثمّ قفلتْ راجعة صوبَ غريته.

ورغم أنّ غريغور كان يُرَدِّدُ في نفسه بلا توقّف أنّ ما من شيءٍ خارجٍ عن المألوف كان يقع، وأنّ بِضْعَ قِطَعِ أثاث وحسب كانت تُنقلُ من مكان إلى آخر، فسُرعان ما تعيّن عليه أنْ يعترفَ، في دخيلته، بأنّه كانَ لِرَواحِ المرأتين وغُدوِّهما المتواصلين، ولِما كان يَصْدُرُ عنهما من تعابيرَ وجيزة ناجمةٍ عن التّعجّب، ولِصرير قِطَعِ الأثاث على الأرضِيّة، وَقْعُ ضَجّة عظيمة تَدْهَمُهُ من كلّ الجهات،

وحقًّا كان يَسْحَبُ رأسَه وقوائمَه نحو باقي جسده، ويضغط جَسَدَهُ حَتَّى يُسَوّيَه بأرضيّة الغرفة، إلّا أنّه اضْطُرّ إلى الاعتراف لنفسه بأنّهُ لن يقوى على احتمال ما يحدثُ لِوقتٍ طويل. فقد كانتا تُخليان غرفته من محتوياتها، كانتا تنتزعان منه أحبَّ الأشياء إليه! فهما قدْ أخرجتا الخزانة التي يوجدُ فيها منشارُ زخرفةِ الخشب وأدواتٌ أخرى، والآن كانتا تقتلعان منضدة الكتابة، المُسَمَّرَةَ تقريبًا إلى الأرضيّة، تلك المنضدة التي كانَ يُنْجِزُ عليها فروضه أيّامَ دراسته في مدرسة التّجارة، وحين كان تلميذا في الثّانويّ، بل وحتّى في زمن المدرسة الابتدائيّة. ولِذا لم يَعد الوقتُ ملائمًا بالنّسبة إليه لكيْ يُقَيِّمَ مدى حُسْنِ نوايا المرأتين، اللتين غابَ وجودُهُما الآنَ عن ذهنه تقريبًا، إذْ إنّهما كانتا قد بلغتا حَدًّا من الإنهاك جعلهما تشتغلان في صمتٍ، فلم يَعُدْ يُسْمَعُ منهما إلّا صدى خَطوهما المتثاقل.

هكذا اندفع خارجًا من الرّكن الذي كان يقبع فيه - في تلك اللحظة، كانت المرأتان، في الغرفة المحاذية، قد استندتا إلى منضدة الكتابة لتَسْتجمعا أنفاسَهما قليلا. لقد غيَّرَ اتّجاهه أربعَ مرّات، ولمْ يَكُن في الواقع يدري، وهو يتنقّل بتلك الصّورة، ما الشّيءُ الذي كان عليه أنْ يُبادِرَ إلى إنقاذه قبل غيره. فجأةً، اجتذبتْ ناظِرِيْه صورة المرأة التي كانت مُدَثّرة كلّيةً بالفراء، تلك الصّورة التي كانت الوحيدة المُتبقّية في وسطِ جدارٍ عارٍ مِمّا عداها؛ فمضى مُتسلّقًا صَوْبَها بأسرعَ ما أمكنه، والتصقَ بقطعة الزّجاج التي تُغَطّيها، والتي شَدَّتْهُ إليها بما يُشْبِهُ الامتصاص، بَاثَّةً

السّكينةَ في جَوْفِهِ الملتهب. وعلى الأقلّ، فهذه الصّورة التي كان غريغور يُغَطّيها لحظتَها بأكملها، لنْ يَأْخُذَها منه أحدٌ. هذا مُؤكَّد. ولوى عنقه مُسْتديرًا ناحيةَ غرفةِ الجلوس من أجل أنْ يُراقِبَ المرْأتين أثناءَ عودتهما.

لمْ تمنح المرأتان جسميهما وقْتًا طويلًا للرّاحة، وسَرْعان ما عادتا؛ وكانت غريته تُسْنِدُ الأمّ، مُحِيطةً إيّاها بذراعها، وتُوشِكُ أنْ تَحْمِلَها حَمْلًا. «حسنًا، ما الذي سنأخُذه الآن؟» قالت غريته، مُلْقيةً نظرةً على ما حوْلها. لَحْظَتَها، التقت عيناها بعينيْ غريغور، الجاثم على الجدار. ولمْ تُحافِظْ على رباطة جأْشِها سوى لكون أمّها كانت حاضرةً؛ وانْحَنَتْ بِوَجهها على الأمّ كيْ لا تتمكّن هذه الأخيرة من الالتفات حواليْها، ثمّ قالت، بارتعاشٍ في الصّوت، ودونما تَرَوٍّ: «هيّا، تعالَيْ! أليس من الأحسن أنْ نعود إلى قاعة الجلوس لِهنيهة؟» أدرك غريغور بوضوح ما كانت غريته تنوي القيام به: لقد كانتْ تُريد أنْ تَطمئنّ على الأمّ بإبعادِها عن الغرفة، وبعدها تعود وتطرده هو من مكانِهِ على الجدار. حسنًا، فلتُحَاوِلْ إذنْ! لقدْ كانَ جاثِمًا فوق الصّورة، وهو لنْ يَتْرُكَها. فَأهوَنُ عليه من ذلك أنْ يَنْقَضَّ على وجهِ غريته.

ما قالتْهُ غريته أثارَ قلَقَ الأمّ، التي قامتْ بخطوة جانبيّة، فإذا بها ترى الكُتلة البُنّيّة الضّخمة القابعة على ورق الجِدار المُزَيَّنِ بالأزهار، وقبل أنْ تَعِيَ حقيقةً أنّ ما كانتْ تراه هو غريغور، صاحتْ بِصوتٍ أَجَشّ، جَهْوَرِيّ: «آه، يا إلهي! يا إلهي!»، وهَوَتْ على الأريكة، فاتحةً ذراعيها عن آخرهما، كما لو أنّها

كانتْ تُعَبِّرُ عنْ تَخلّيها عن كلِّ شيء، وبعدَها، كفَّتْ عن كلِّ حركة. «غريغور، أنت!»، صاحت الأخت، وقد رفعتْ قبضتها وتَفَرَّسَتْ فيه. وتانك كانتا الكلمتين الأُولَيَيْن اللتين توجّهتْ بهما مباشرةً إلى غريغور منذُ تَحَوُّلِه البَدَنيّ. ثمّ هَرَعَتْ إلى الغرفة المجاورة لتجلب منها عِطْرًا تُوقِظُ بِهِ الأمّ من غيبوبتها؛ ورغب غريغور، بدوره، في أنْ يَمُدَّ يَدَ العون ـ فلإنقاذ الصّورة، كان أمامه مُتّسَعٌ من الوقت ـ لكنّه كان حقًّا وثيقَ الالتصاق بالزّجاج. وقد بَذَلَ جهدًا حقيقيًّا لينتزعَ منه نفسَه، ثمّ سارع، بدوره، إلى الالتحاق بالغرفة المُجاورة، كما لو أنّه كان يستطيعُ، الآن أيضا وكما في الماضي، أنْ يُقَدِّمَ لأُخته النُّصْح؛ إلّا أنّه اضْطُرّ إلى البقاء وَرَاءَها، قابعًا حيثُ هُو، فيما كانتْ هي تقوم بالبحث فيما بين مجموعة من القوارير، وهكذا، فلمّا استدارتْ ناحيته، تَمَلّكَها الذُّعْرُ مُجَدَّدًا؛ وأَسْقطتْ قارورةً أرْضًا، فتناثرتْ هذه الأخيرة شظايا، واحدةٌ منها أصابتْ وَجْهَ غريغور، وانْتَشَرَ فوق جِسْمِهِ رشَاشٌ حِمْضيّ أكّال منْ دواءٍ ما؛ وبسرعة شديدة، التقطتْ غْرِيتِه أكبرَ عدد ممكن من القوارير وهَرَعتْ في اتّجاه الأمّ، مُغْلِقةً الباب مِنْ ورائها بِرَكلة. وجد غريغور نفسَه، إذنْ، مَفْصُولا عن أمّه التي رُبّما تكونُ، بِخَطَئِه، مُشْرِفةً على الموت. ولمْ يكنْ وارِدًا بالنِّسْبة إليه أنْ يَفْتَحَ الباب، فلو فَعَل لَمضى وطَرَد الأخت، والحال أنّها كان ينبغي أنْ تبقى بِقُرْبِ أُمّه؛ فلمْ يَعُدْ أمامَهُ سِوى أنْ ينتظر. واغتمّ بفعل تقريعِه لِذاته وبلبلهُ القلق، فبدأ يزحفُ مُسْرِعًا، على الجدران والأثاث والسّقف وقد استبدّ به اليأس، وفي الأخير،

حين بدأت الغرفة بكاملها تدور مِنْ حَوْلِه، هَوَى في وسطِ الطّاولة الكبيرة.

مرّتْ هنيهة، وكان غريغور جاثمًا في مكانه، واهنَ القوى. وكانَ الصّمتُ يَرينُ على ما حواليه. لَرُبّما كان هذا مُؤَشّرًا طَيّبا. ولحْظتَها قُرِعَ جرسُ الباب. كانت الخادمة، بالطّبع، تُغلقُ على نفْسِها باب المطبخ بالمفتاح، وإذنْ فغْرِيتِه هي التي مضتْ لتفتح باب البيت. كان الأبُ قد جاء. «مالذي جرى؟»، كان هذا السّؤال أوّلَ ما تلفّظَ به الأب؛ لا شكّ أنّهُ فهِمَ كُلَّ شَيْءٍ، بِمُجَرَّد النّظر إلى ملامح غريته. أجابته هي بصوتٍ بهيم، وكانَتْ بلا شكٍّ تضغط وجهَهَا على صدره: «كانتْ أُمّي قدْ أُغْمِيَ عليها، لكنّ حالتها قد تحسَّنتْ. وغريغور قد انْفَلَت» قال الأب: «لقد كنتُ أتوقّعُ حدوثَ هذا الأمر، وكنتُ دائمًا أَقول لكما ذلك؛ لكنّكنّ، معشرَ النّساء، لا تَمِلْن إلى الإصغاء.» أدرك غريغور بِجلاء أنّ أباه أساء تأويل ما أسمتْهُ غريته، باقتضاب، انفلاته، فظنّ أنّ غريغور قد أقدَمَ على فِعْلٍ ما عنيف. كان على غريغور، إذن، أنْ يبعثَ الطّمأنينة في نفس أبيه، أمّا أنْ يُفَسِّرَ له ما حدث، فذلك ما لمْ يكنْ يملكُ الوقت ولا الاستطاعة اللازمين له. وهكذا لجأ إلى باب غُرفته وَقَبَع لصيقًا به، حتّى يُمَكِّنَ أباه من أنْ يُدرك بوضوح، بمُجَرَّد قدومه عبر الرّدهة، أنّ غريغور حَسَنُ النّيّة، ويكفي أنْ يُفْتَحَ له الباب حتّى يدخُلَ إلى غرفته، فلا داعيَ إلى دَفْعِه إلى ذلك بالإكراه.

لكنّ مزاج الأب، لحْظتَها، لم يَكُنْ لِيُسْعِفَه على إدْراكِ أَمْرِ

دَقيق مثل ذاك. فما إنْ أطلّ حتّى نَدَّتْ عنه «آه»، بِصَوتٍ جهير، ونبرةٍ فيها اهتياجٌ ورضًى عن الذّات في آن. زحزح غريغور رأسَهُ عن الباب، ورفعه صَوْبَ أبيه. إنّه، بالتّأكيد، لمْ يكنْ قد تَصَوَّرَ أباه كما بدا له في وقفته تلك؛ ومن المؤكّدُ أنّه، في الفترات الأخيرة التي استغرَقَه خلالها الزّحفُ في كلّ اتّجاه، بِحسب طريقته الجديدة، كانَ قدْ كفَّ عن إيلاء ما يقع في بقِيّة الشّقّة نفسَ اهتمامه السّابق، ولذا فعليه أنْ يتوقّعَ مُعْطياتٍ جديدة. ومع ذلك، مع ذلك، أكان ذلك الشّخصُ ما يزال هو الأب؟ أهو نفسُ الشّخص الذي كان، في ما مضى، يَنْدَسُّ في وَهْدَةِ سريره، مَهدودَ القوى، حين كان غريغور يمضي في سَفْرةٍ عمل؟ أهو نَفْسُهُ الشّخص الذي كان، إذْ يَعودُ غريغور في الأمْسِيَة، يستقبله لابِسًا روبًا منزليًّا، وقابِعًا في كُرْسيّه ذي الذّراعَيْن، إذْ كان قد أصْبَحَ شِبْهَ عاجِزٍ عن الوقوف، كما أصبحَ يكتفي بِمَدّ يديه للتّعبير عنْ فَرْحَتِه؟ أهو الشّخصُ نفسُه الذي كان، خلال النُّزُهات العائلِيّة المُشْتركة القليلة ـ وكانت تَتِمّ في بعض أيّامِ الآحاد من السّنة وفي أيّامِ الأعياد الكُبْرى ـ يَمشي مُتثاقِلا بين غريغور والأمّ اللذين لم يكونا، فيما يخصّهما، يُسْرِعان حقًّا في مَشْيِهما، فكانَ هو يَجعلهما أشدَّ بُطْئًا؛ أهو الشّخصُ نفسُه الذي كان يتقدّم بِعناء وجُهْد، مُلْتفًّا في معطفه القديم، مُتّكِئًا على عَصاه ومُتَلَمِّسًا بها الأرض في حَذَر مُسْتمِرّ، والذي كان، كُلّما أراد أنْ يَقُولَ شيئًا، يتوقّفُ في كُلّ مَرَّةٍ تقريبًا، حتّى يَجْمعَ مُرافقيه من حوله؟ لكنّه، الآنَ، يقِفُ مُنْتَصِبَ القامة، لابِسًا بذْلةً مُحْكَمة، زرقاءَ وأزرارها

في لون الذّهب، كتلك التي يرتديها مُسْتخدَمو البنوك، وقد ظَهَرَ في أعلى ياقةِ سُترتها، تلك الياقة المُرْتفِعة والمُنَشّاة، ذقنُه المُمتدّ وَلَحْمُ لُغْدَيْهِ الوافر، وتحتَ حاجبيْه الكَثيفين، كانت عيناه السّوداوان تُلْقيان نظراتٍ قَوِيّةً وثاقبةً، أمّا شعْرهُ الأبيض، الذي كان، في العادة، مُشَعّثًا، فهو الآن مُسَرّحٌ بعناية، ومفروق بإتقان فَرْقًا له لمعان. وقذفَ بكاسكيتِه، المُرَصّع بِحروف رمزيّة ذهبِيّة ـ لا شَكّ أنّها رَمْزٌ دالٌّ على بَنْكٍ ما ـ فطار الكاسْكيت عبر الغُرْفة بأكملِها وسقط على الأريكة. ثُمّ إنّهُ أَدْخَلَ يديه في جيبي بنطلونه، رَادًّا بتلك الحَرَكة طَرفيْ سُتْرَتِه إلى الوراء، وتوجَّهَ نحو غريغور بوَجْهٍ عابِس. لا شكّ أنّهُ هو نفسُه لمْ يكنْ يَعْرِفُ ما الذي ينوي أنْ يُقْدِمَ عليه، لكنّه كان يرفعُ قدميه، الواحدة تلو الأخرى، إلى عُلُوٍّ غيرِ معهود، وقد اندهشَ غريغور من الحجم الهائل لنعلي جَزْمته. لكنّهُ لمْ يتوقّفْ طويلا عند هذه الملاحظة، إذْ كانَ يُدْرِكُ منذ اليوم الأوّل من حياته الجديدة أنّ أباه كان يعتبر أنّ عليه أنْ يُعامِلَه بمُنْتَهى القَسْوة. هكذا بدأ يَجْري أمام أبيه، فإذا كفَّ الأبُ عن الحَرَكة، توقّف، وإذا تَحرّك الأب، لاذَ هو بالفرار. وعلى هذا المنوال، طافا في الغُرْفَة مرّاتٍ عِدَّة دون أنْ يحدُثَ أيُّ شيءٍ يَحْسِمُ الوَضع، بل وحتّى دون أنْ يَبْدُوَ أنّ ثمّة مطاردةً ما، لأنّ ما يَجْري كان بطيءَ الإيقاع. ولِذا لمْ يَرَ غريغور ضَيْرًا في البقاء على أرضيّة الغرفة، عِلْمًا بأنَّهُ كان أيضًا يتخوّف، إذا هو لاذَ بالجدران أو فَرّ متوجّهًا إلى السّقف، مِنْ أنْ يرى أَبُوهُ في ذلك ضَرْبًا مِن النّزوع الغريب إلى الشّرّ. ومع هذا، فقد كان على غريغور أنْ

يَقول لنفسِه بأنّه لنْ يَحتمل طويلا الجريَ حتّى بتلك الوتيرة، ذلك أنّه كُلّما خطا الأب خُطوة، يكونُ عليه هو أنْ يَقُومَ بِعدد كبير من الحركات. بل إنّ ضِيقَ النَّفَس كانَ قد بدأ يظهر عليه، عِلْمًا بأنّ رئتيه، حتّى في حياته الماضية، لمْ تكونا منيعتين جِدًّا. كان يَتقدّمُ مُترَنِّحًا، فاتِحًا بِالكادِ عينيه ليُبْقِيَ طاقاتِهِ مُرَكَّزَةً بِشَكْلٍ أفضلَ على الجَرْي، ولـمْ يَتَصَوَّرْ، في حالِ التّبلّد الذّهني التي انتابتْهُ، أيَّ إمكانيّةٍ للخلاص سوى عن طريق الجَرْي ـ إذْ كان كأنّما غابَ عَنْ ذِهنه أنّ الجُدْران متاحة له، رغم أنّ السّبيلَ إليها كانَتْ تَسُدُّهُ قِطَعُ أثاثٍ منقوشةٌ ببراعة، حافِلةٌ بالزّوايا وبالحُزُوز ـ إذا بشيءٍ ما، تَمَّ قَذْفُه في اتِّجاهه مِنْ دونِ عُنف، يَسْقُطُ قريبًا منه ويتدحْرجُ أمامه. تلك كانتْ تُفّاحَة؛ وعلى الفَوْر تبعتْها تُفّاحةٌ أُخْرى. وتسمّرَ غريغور في مكانه، مرعوبًا؛ فالاستمرار في الجَرْي لـمْ يعُدْ مُجْدِيًا، ما دام الأبُ قدْ قرّر أَنْ يُوَجِّه إليه قذائفه. لقد كان يتزوّد من طبق الفاكهة الموضوع فوق صِوَان السُّفْرة، ويملأُ جيوبه بحبّات التّفّاح، وها هو الآن يَقْذِفُ بالتّفّاحة تلو الأخرى، مِنْ دون أنْ يُسَدِّد جَيِّدًا حَتّى هذه اللحظة. وتتدحرجُ التُّفّاحات الحمراء الصّغيرة في كلّ اتّجاه، على أرضيّة الغرفيّة، وتتصادَمُ فيما بينها. إحدى التُّفّاحات، وَقَدْ قُذِفَ بها من دون جُهد، لامستْ ظهرَ غريغور، وانزلقتْ عنه دونما إيذاء. لكنّ تفّاحة أُخرى تبعتْها على الفور، انغرستْ في ظهره وتوغّلتْ؛ وَرَغِبَ في أنْ يَجُرّ نفسَه ويتقدّم قليلا، كما لو أنّ ذلك الألـم المُفاجئ والذي لا يُصَدَّق كان سيزول عنه إنْ غَيَّر موضِعَه؛ غيرَ أنّهُ أحسّ بِنَفْسِه كالمَشْدود

بالمسامير إلى مكانه، فَمَطَّ جَسَدَه وقد أصابَ حواسَّهُ كُلَّها اضطرابٌ تامّ. وكان آخِرَ ما أمْكنه أنْ يراه هو انفتاحُ بابِ غرفته بعنف، وخروجُ أُمّه مِنْها في عجلة، في قميصها التّحتيّ، تتبعُها الأخت التي كانتْ تُغوِل، بَعْدَ أنْ فَكَّتْ رِباطاتِ ثيابِ أُمِّها لِتُمَكِّنَها من التَنَفُّس بِارتياح أثناء الإغماءة التي انتابَتْها؛ لحْظَتَها، ركضت الأمّ نحو الأب، وفي طريقها أسْقَطتْ تُنُّوراتها الدّاخِلِيّة المحلولة، التي انزلقتْ إلى الأرض واحِدةً بعد الأخرى، واندفعتْ، مُتعثِّرَةً في طريقها بملابِسها السّاقِطة، صوبَ الأب مُباشَرةً، لِتُحيطَهُ بِذراعيها، مُتوحِّدةً معه كُلِّيَّةً - إذّاك فَقَدَ غريغور القدرةَ على الإبْصار - وَكانتْ كَفَّاها موضوعتين على عنق الأب، لمّا بدأتْ في التّوسّلِ إليه بأنْ يُبْقِي على حياة غريغور.

□□□

III

لقد بدا أنّ الإصابة الخطيرة التي عانى منها غريغور لِأكثر من شهر ـ لَمْ يجرؤ أحدٌ على انتزاع التّفّاحة، وهكذا بقيتْ مُنغرِسة في لحمه كذِكْرى مرئيّة ـ ذَكَّرَتْ، حتّى الأبَ نفسَه، بِأنّ غريغور، بالرّغم من الهيئة الكريهة والباعثة على الكرب التي أصبح عليها الآن، هو واحِدٌ مِنْ أفراد العائلة، ولا تجوز معاملته كعَدُوّ، بل إنّ الواجب العائليّ يقضي، على العكسِ من ذلك، بالتّغلُّبِ على كلِّ شعورٍ بالاشمئزاز إزاءَه، والتّسَلّحِ بالصَّبر، والصّبرِ وحده.

إذا كانتْ مقدرات غريغور الحركيّة قد تدنّتْ، وربّما بِشكلٍ نهائيّ، بسببِ من إصابته، بِحيْثُ أصبح يلزمه، وكأنّه شَيْخ مُعاق، دقائقُ طويلة، طويلة، ليقطعَ غُرْفته زحفًا ـ والزّحفُ في الأعالي ما عاد وارِدًا التّفكيرُ فيه ـ، فإنّه، بالمقابل، قدْ عُوِّض عن ذلك التّدهوُر في حالته بِطريقةٍ اعتبرها هو نفسُه مُرْضِيَةً، إذْ إنّ بابَ غرفة الجلوس أصبح يُتْركُ مَفْتوحًا أمامه في كُلّ مساء، واكتسبَ هُوَ عادةَ مُراقبة ذلك الباب، مُسَمِّرًا عليه عينيه ساعةً أو ساعتين قَبْل أنْ يُفتح، وهكذا صار بإمكانِه، وهو قابعٌ في ظلام غرفته، غيرَ مَرْئِيّ مِنْ غُرْفَة الجلوس، أنْ يرى أفراد أسرته أجمعين، جالسين إلى المائدة المُضاءة بنور المصباح، وأنْ يُنْصِتَ إلى

أحاديثهم، بِمُوافقتهم كُلّهم نَوْعًا ما، وهذا يختلف كُلّيّةً عمّا كان عليه الأمر في الماضي.

حَقًّا، لَمْ تَعُد الأحاديثُ مُفعمةً بالحيويّة، كتلك التي كانتْ في الماضي، والتي كان غريغور، حين يَحُلُّ في إحْدى الغرف الصّغيرة بفندقٍ ما، يتذكّرُها بحنين في اللحظة التي يندسّ خِلالها، مُتْعبًا، بين شراشف السّرير الرّطبة. الآن، أصبحَ الصّمتُ يُخَيِّم، في الغالب الأعمّ، على جَلَسَاتِ الأُسْرَة. فَبعد الانتهاء من العشاء بقليل، كان الأب ينام وهو في كُرْسِيِّه ذي الذّراعيْن، وكانت الأمّ والأخت تستحثّان بعضَهما على لزوم الصّمت؛ وكانت الأمّ تُطيل الطّأطأة تحت المِصباح، مُنْشغلةً بخياطة ملابسَ داخِليّةٍ ناعمةٍ لمحلٍّ للأزياء؛ أمّا الأخت، التي أصبحتْ بائعة في مَحَلٍّ تِجاريّ، فكانتْ تَقْضي أُمْسياتها في تَعلُّم الكتابة الاختزاليّة واللغة الفرنسيّة، آمِلةً، من خلال ذلك، أنْ تَحْصُلَ يومًا ما على عملٍ أفضل. وفي بعض الأحيان، كان الأب يستيقظ، وكما لوْ كان لا يُدْرِكُ أنّه قدْ أخلد إلى النّوم من قبل، يتوجَّهُ إلى الأمّ قائلا: «يا لَطُولِ الوقتِ الذي تقضينه في الخياطة؛ وفي هذا المساء مُجَدَّدًا!» ثُمّ يَعُودُ فورًا إلى النّوم، فيما تتبادلُ الأمّ والأختُ ابتساماتٍ مُتْعَبة.

بنوعٍ من العناد، كان الأبُ يرفض أنْ يخلع بزّةَ المُسْتخْدَم البسيط، حتّى في البيت؛ وفيما كانَ رُوبُه المنزِليّ يتدلّى، في غير جَدْوى، من المشجب، كان هو يغفو جالِسًا، بكامل ثيابِه، كما لو أنّهُ كان دائمَ الاستعداد للقيامِ بما تتطلّبه الخِدمة، وينتظرُ، حتّى

في جلسته تلك، نِداءَ رئيسِه. وهكذا، فإنّ تلك البِزّة، التي لم تكن جديدةً حتّى أوّلَ ما امتلكها، كانتْ تُصبِحُ أقلّ نظافة أكثر فأكثر، رغم اعتناء الأمّ والأخت بها؛ وكثيرا ما كان غريغور يقضي أمسياتٍ بأكملها وهو يتأمّل ذلك اللباس ذا الألق المنبعث من الأزرار الذّهبِيّةِ المظهر، الصّقيلة دائمًا، والذي، مع ذلك، كانتْ تنتشِرُ فيه البُقَع، وكان الرّجل المُسِنّ ينامُ دون أن يخلعَه، ومَعَ أنّه لمْ يكنْ مُريحًا لَهُ بالمرّة، إلّا أنّهُ لمْ يكُنْ يمنعُهُ من أنْ ينام في سكينة.

وما إنْ كانت ساعةُ الحائط تُعْلِن العاشِرة، حتّى تعْمَدَ الأمّ إلى إيقاظ الأبِ بكلماتٍ رقيقة، وتُحاوِل، بعد ذلك، أنْ تُقْنِعَهُ بأنْ يَمضِيَ إلى فراشه، لأنّهُ لمْ يَكُنْ يَخْلُدُ، حيثُ هو، إلى النّومِ الحَقيقيّ الذي كان في أمسِّ الحاجةِ إليه، ما دام عَمَلُهُ يبدأ مع السّادسة صباحًا. لكنّ العناد الذي صارَ لَهُ دَيْدَنًا، منذ أنْ أصْبَحَ مُسْتَخْدَمًا، كان يَجعلُهُ، حين يستيقظ، يُصِرُّ على البقاء جالِسًا إلى المائدة لِمزيدٍ من الوقت، رغم أنّهُ، في كلِّ مرّة، كانَ يَعودُ مُجَدَّدًا إلى النّوم، وقدْ كان يلزم جُهْدٌ جهيد من أجل دفعِه إلى تبديل الكُرْسِيّ ذي الذّراعين بالسّرير. وكانت الأمّ والأخت تستحثّانه بِلُطْف وتَجِدّان في ذلك، وكان هو يهزّ رأسَه في تثاقُل، على امتدادِ ربع ساعة، ويستمرّ في إغماض عينيه ولا يستيقظ. بَعْدَهَا، كانت الأمّ تَجْذِبُهُ من كُمّه، وتهمِسُ في أُذنه كلماتٍ رقيقة، والأختُ كانتْ تترك شُغْلَها لتُعاونَ أُمّها، لكنْ بلا جدوى، فالأب كان يغوصُ أكثرَ في كرسيّه ذي الذّراعيْن. وفقط حين تمسكه

المرأتان من إبطيه، كان يفتح عينيه، وينظر إليهما، واحدةً بعد الأخرى، وعادةً ما يقول: «يا لَهذه الحياة! يا لهذه السّكينة التي ينبغي أنْ أتمتّع بها في شيخوختي»! وكان يستندُ إلى المرأتين، ويقفُ بصعوبةٍ كما لو أنّهُ أثْقلُ الأحمالِ على نفْسِه، ثُمّ يتركهما تقودانِه حتّى الباب، وحينها يُومئ إليهما بالانصراف، ويمضي لِوَحْدِه؛ وقتَها، وبأسْرَعَ ما يُمكن، كانت الأمّ تتخلّصُ من أدوات الخياطة، والأخت من قَلَمِها، لِتهرعا إليه من أجل الاستمرار في مُساعدته.

في هذه الأُسْرة المُجْهَدَة، المُرْهَقَة بالأشغال، مَن الذي كان لهُ الوقت للاهتمام بغريغور أكثرَ مِمّا تفرضُهُ الضَّرورةُ التي لا محيص عنها؟ لقد أصبحَ الانتقاصُ من مصاريفِ العَيْشِ تدبيرًا يُتّخَذُ باستمرار؛ كما تمّ، أخيرًا، صَرْفُ الخادمة الصّغيرة؛ وأصْبَحَتْ خادمةُ تنظيف غيرُ مُقيمة، وهي امرأةٌ شديدة الضّخامة، بارزةُ العِظام، شعرُها الأبيض يهتزّ حول رأسِها، تجيءُ في كلّ صباح ومساء لتقومَ بأقسى الأشغال؛ وتضطلعُ الأمّ بما عدا ذلك من أعمال، إضافةً إلى أعمالِ الخِيَاطة الكثيرة. بل إنّ الأمر بلغَ حَدَّ بَيْعِ عَدَدٍ مِنْ حِلَى العائلة، التي كانت الأمّ والأخت تلبسانها في السّابق وتزدهيان بها في السّهرات والحفلات، وقد علم غريغور بالأمر، ذاتَ مساءٍ، من خلال النّقاش العائليّ الذي دار حول المبالغ المُحَصّلَة مُقابِلَ تلكَ الحِلى. لكنّ موضوع التّشَكّي الرّئيس كان دائمًا هو أنّهم لا يستطيعون تغيير هذه الشّقّة، مَعَ أنّها أكثرُ اتّساعًا مِمّا يلزمهم في الوضع الحاليّ، وذلك لأنّ نقلَ غريغور إلى شُقّةٍ أخرى يبقى أمْرًا لا يُمْكِنُ تَصَوُّرُه. غير أنّ غريغور كان

يُدْرِكُ جَيِّدًا أنّ هَوَاجِسَهُمْ تجاهه لم تكن وحْدَها ما يَحُولُ دونَ أنْ يُغَيِّروا الشّقّة، إذْ كان بإمكانهم نَقْلُه، بسهولة، في صندوقٍ مُلائم، بِهِ ثُقوبٌ للتّهويَة؛ فما مَنَعَهُمْ، بالأساس، من تغيير المسكن، هو على الأرجح أنّهم كانوا قد فقدوا كُلَّ أمل، فقد كانوا يعتبرون أنّ المُصيبةَ التي حاقتْ بِهِم، لمْ يَعْرِفْ لها صِنْوًا أيٌّ من أقربائهم أو معارفهم. لقد بلغوا في تأديةِ ما يقتضيه العالَم من النّاس الفُقراء أقْصى الحُدود: فالأب كان يجلب لِصغار مُوَظّفي البنك فطورهم، فيما تستنزفُ الأُمّ صِحّتها لتهييئ ملابِسَ داخليّة لأشخاص لا تعرف مَنْ هُمْ، ولا تَكُفُّ الأخت عن الهرولة، منْ هنا إلى هناك، خلفَ نَضدها، تنفيذا لِطلبات الزّبناء. لَمْ يَكُنْ في وُسْع الأسرة أكثرَ من ذلك. وكانتْ آلامُ الجُرْح، بِظَهر غريغور، تَعودُ إلى حِدَّتِها الأولى، حينَ يرى الأمّ والأخت تؤوبانِ بعد أنْ تكونا قد أوصلتا الأب إلى السّرير، فتتركان شُغْلهما جانِبًا، وتجلسان متقاربتين جِدًّا، واضعتين خدًّا على خدٍّ، وَحينَ تقول الأمّ، في تلك اللحظة، مُشيرةً إلى غرفة غريغور: «أغلقي الباب، هنالك، يا غريته»، وحين كانَ غريغور، بعد ذلك، يَجِدُ نفسَهُ، مُجَدَّدًا، في الظّلام، فيما تكون المرأتان، في مكانٍ مُجاور، تتركانِ دموعَهُمَا تتمازج، أوْ تُسَمّران عيونهما على المائدة، من دون حتّى أنْ تبكيا.

أصبح غريغور يقضي الليالي والنّهارات من دون نومٍ، تقريبًا. وفي بعض الأحيان، كانَ يَتَصَوّر أنّه سوف يُمسك من جديدٍ بزمام أمور العائلة، كما في الماضي، بمجَرّد ما ينفتحُ بابُ الغرفة

مُجَدَّدًا؛ وبعد فترة طويلة، عادَ الرّئيس ومُسَيِّرُ الشّركة إلى الظّهور في تَخَيُّلاتِه، وكذلك الوُكلاء، والمُتَمَرِّنون صِغَارُ السّنّ، والبوّاب الذي كان غبيًّا إلى حدّ بعيد، وصديقان أوْ ثلاثة، مِمّنْ يشتغلون في مؤسّسات أُخرى، ومُنَظِّفةُ غُرَفٍ بفندقٍ في إحدى الضّواحي ـ ذكرى لطيفة، خاطفة ـ، وأمينةُ صندوقٍ في مَتْجَرٍ لِبَيْع القُبّعات، كان قد حاول كسْبَ حُبّها، وكان جادًّا في ذلك، إلّا أنّه تباطأ كثيرًا... كُلُّ هؤلاء كانوا يَظهرون له، ومعهم مجهولون أو أَشْخاصٌ نَسِيَ مَنْ يَكُونُون، إلّا أنّهم لَمْ يكونوا لِيَمُدُّوا له ولأسْرَته يَدَ المُساعدة، بَلْ كان الوُصولُ إلى أيّ منهم أمْرا مُسْتَحيلا، ولِذا كان يُسَرُّ حين يختفون. وفي أحيانٍ أخرى، لا يَكون في حالة مزاجيّة تسمح له بأنْ يَحْمِلَ هَمَّ العائلة، فَكلُّ ما يشْعُرُ به هو الغيظُ الشّديد من سوء الاعتناء به، ورغم أنّه لا يتخيّل شيئًا ما يستثيرُ شَهِيّتَه، فإنّهُ كان يُنْشِئُ خُططًا بقَصْدِ الوصول إلى مَخزن المَؤونة، لِيأخُذَ منه نصيبَهُ الذي هو مِنْ حَقّه، حتّى وإنْ لمْ يكنْ جائِعًا. ذلك أنّ الأخت أَصْبَحَتْ لا تَشْغَلُ بالَها بما يُمكن أنْ يَلِذَّ لِغريغور من طعام، فهي، قبل أنْ تَمْضِيَ جَرْيًا نحو المتجر، في الصّباح وعند الظّهيرة، كانتْ تَدْفعُ بقدمها، مُتَعَجِّلَةً، أيَّمَا طعام إلى داخلِ غرفة غريغور، وفي المساء تُخْرِجُهُ منها بِضَرْبَةِ مكنسة، دون أنْ تَهتمّ بِما إذا كان غريغور قد ذاق منه قليلا، أو لمْ يمسّه بتاتًا، كما كان يحدثُ في الغالب الأعمّ. أمّا ترتيب الغرفة، الذي أصبحتْ تَقومُ به في كُلِّ مساء، فقد كانتْ تَنْتَهي مِنْهُ بِسُرْعةٍ ما بعدها سُرْعة. وهكذا، أصْبحت الأقذار تمتدّ، خُطوطًا، على جدرانها، كما

تناثرتْ في أرجائها كُراتٌ صغيرة من الغُبار والقذارة. في البداية، كان غريغور يَتَسَمّرُ، حين تجيء الأخت، في واحدةٍ من الزّوايا، البادية القَذَارَة، كأنّما لِيَلُومَها على حال الغُرْفة. ولا شكّ أنّه كان بإمكانه أنْ يلجأ إلى ذلك النّوع من الوقفات، على امتداد أسابيع طويلة، من دون أنْ يَتغيَّرَ شيءٌ في تصرّف الأخت؛ ذلك أنّها كانتْ ترى الأقذار مثلما كان هو يراها، لكنّها كانت قدْ قرّرَتْ أنْ تتركها حيثُ هي. مع هذا، أصبحتْ، منذ وقت قريب، متشبّثةً بِصورة غير عاديّة بأن يظلَّ ترتيبُ غرفة غريغور من اختصاصها هي؛ وقد استبدّتْ بالأسرة كلّها رغبة مماثلة. وفي أحد الأيّام، قامت الأمّ بتنظيف شامل ودقيق لغرفة غريغور، الأمر الذي تطلّب منها استعمالَ سطولِ ماءٍ عديدة ـ وما نجم عن ذلك من رطوبة زائدة أزعج غريغور حَقًّا، فبقي مُسْتلقيا على الأريكة، جامِدًا، شَديدَ التّضايق ـ لكنّ العقاب سُرْعان ما سيحيق بالأمّ. ففي المساء، ما إنْ لاحظت الأخت التّغيّر الذي طرأ على غرفة غريغور، حتّى عادت راكضَةً إلى غرفة الجلوس، في حال من الانفعال الشّديد النّاجم عن شُعُورِها بالإهانة، وهنالك، مُتجاهلةً يَدَي الأمّ الممدودتين تَوَسُّلا إليها، انفجرتْ باكيةً بِمرارة أمام والديها ـ فالأب كان قد استيقظَ، مُجفِلاً، في كُرْسِيّه ذي الذّراعين. لأوّل وهلة، انتابهما الذّهولُ والشُّعورُ بالعجز، وبعد ذلك، جاء ردُّ الفعل مِنْ قِبَل كُلٍّ منهما. فالأبُ بَدَأَ بتأنيب الأمّ، التي كانتْ إلى يمينه، لأنّها لمْ تَتْرُك أمْرَ تنظيف الغرفة للأخت، ثُمّ اتّجه إلى الجهة اليسْرى، حيثُ الأختُ، وصاحَ فيها قائلا

إنّها، مُسْتقبلًا، لن يكون لها الحقّ أبدًا في أن تُنَظِّفَ غرفة غريغور؛ ثُمّ إنّ الأمّ حاولتْ أنْ تَجْذُبَ الأب إلى غرفة النّوم، فهو كان قد اهتاج وفَقَدَ السّيْطرةَ على أعصابِه، فيما كانت الأخت تُدقْدِق على المائدة بقبضتيها الصّغيرتين، وجسدُها يتهزْهَزُ بِفِعْلِ النّشيج، وعن غريغور كان يَصْدُرُ فحيحٌ عنيف، فقد كان مغتاظا مِنْ عَدَم مبادرةِ أيٍّ منهم إلى إغلاقِ الباب حتّى يُريحَهُ من ذلك المشهد وتلكَ الضّجّةِ العارمة.

لكنْ، حتّى لو كان الشّغلُ في المتجر يُنهك الأخت، ويجعلُها، بالتّالي، غيرَ مُسْتعدّة للاستمرار في إيلاء غريغور نفسَ عنايتها السّابقة، فإنّ الأمّ لمْ تكنْ، مع ذلك، مُضطرةً إلى أنْ تَحُلَّ مَحَلَّها، ما دامت الخادمة موجودة. فتلك الأرملة المُسِنّة، التي لا شكّ أنّ بنيتها القويّة قد كَفَلَتْ لها أنْ تجتاز أَسْوَأَ المِحن خلال حياتها الطّويلة، لم تكن تشعر باشمئزاز حقيقيّ من غريغور. ففي أحد الأيّام، ودون أنْ تكونَ لديها ذَرَّةٌ مِنْ فُضول، فتحتْ بابَ غُرْفَتِه، وإذْ رأتْهُ وقد تَفَاجأ وبدأ يجري في كلّ اتّجاه مِنْ دونِ أنْ يكونَ هنالك مَنْ يُطارِدُه، بقيتْ واقفةً في مكانِها، مندهشةً وجامعةً ذراعيْها على صَدْرِها. ومنذ تلك المرّة، لمْ تَنْسَ قطُّ، لدى مُرورِها، في الصّباح كما في المساء، أنْ تُوارِبَ البابَ لِلَحظةٍ، تُلْقي خلالَها نظرةً على غريغور. في البداية، كانتْ تبلغُ حدّ مناداته ودعوتِه إلى القدوم نحوها بتعابيرَ كانتْ تعتبرها، ولا شكّ، وُدّية، مثل: «اِقْتَرِبْ قليلا، يا خُنْفُسَ الرّوث!»، أو: «انظروا إلى خنفسِ الرّوثِ هذا». ولم يكُنْ غريغور يُبْدي أيَّ استجابة لمثل تلك

النّداءات، بَلْ كانَ يبقى جامِدًا في مكانه، كما لو أنّ الباب لمْ يكنْ قد فُتِحَ أصْلا. عِوَضَ أنْ يتركوا هذه الخادمة تُزْعِجُهُ من دون جدوى، بحسب نَزَواتِها، لَيْتَهُمْ أمروها بأنْ تُنَظِّفَ غُرْفَتَه في كلّ يوم! وذات صباح، في وَقْتٍ مُبَكِّر ـ كانَ مطرٌ عنيف يقرعُ النّوافذ، رُبَّما إيذانا بِقدوم الرّبيع ـ، انزعجَ غريغور من سماع الخادمة تُكَرِّرُ تعابيرَها تلك، إلى حدٍّ أنّه اتّجه نحوها، كما لو أنّهُ ينوي مُهاجَمَتَها، لكنّه كانَ واهنَ الحَرَكة، بَطيئَها. أمّا هي فإنّها، عِوَضَ أنْ تَشْعُرَ بالخوف، اكْتَفَتْ بِرفْعِ كُرْسِيٍّ كان قُرْبَ الباب، عالِيًا، وبقيتْ في مكانها، فاغرةً فَاها، وكان واضِحًا أنّها لنْ تُعيدَ إطباقَ شفتيها إلا بَعْدَ أنْ يكونَ ذلك الكُرْسِيّ قد هوى على ظَهْرِ غريغور. «إذن، فأنتَ لن تَدْنُوَ أكثر؟» سألت غريغور فيما كانَ يَسْتديرُ راجِعًا، وفي هدوء، أعادت الكُرْسِيّ إلى الزّاوية التي كان فيها.

لمْ يَعُدْ غريغور، الآن، يأكل شيئًا تقريبًا. وبالكاد كان، إذا مرّ صُدْفَةً بجانب الطّعام الذي أُعِدَّ له، يلتقطُ منه لُقْمةً بفمه، كأنّما على سبيلِ اللعب، ويتركُها فيه لِساعات، ثُمّ، غالبًا ما يلْفَظُها. في البداية، حسِبَ أنّ الحزن الذي كانتْ تُسَبِّبُه له حالةُ غُرْفَتِه هو الذي جعله يعزُفُ عن الأكل، ولكنّ الذي حدث هو أنّهُ سرعان ما اعتاد على التّغيّرات التي لحقت الغرفة وألِفَها. ذلك أنّ غُرْفته أصبحت المحلّ الذي تُودِعُ فيه الأسرةُ الأشياءَ التي لا تَجِدُ لها مكانًا آخر، وَكان هذا النّوعُ من الأشياء قد تكاثر، ذلك أنّهُ تمّ كِراءُ واحدةٍ مِن غُرف الشّقّة لثلاثة مُسْتأجرين. لقدْ كانوا أناسًا صارمين ـ كلّهمْ ذَوُو

لِحى، كما لاحظ غريغور يومَ أطلَّ من شَقٍّ بالباب ـ حريصين على النّظام، لا في غُرْفتهم فحسب، بل في كامل الشّقّة التي أصبحوا من المقيمين بِها، وخاصّةً في المطبخ. لَقَدْ كانوا لا يحتملون وجودَ أيِّ شيء زائدٍ عن الحاجَة، وخاصّةً إذا كان قَذِرًا. كما أنّهُمْ كانوا قَدْ جلبوا معهم أغلبَ ما يحتاجونه من قطع الأثاث. وهكذا أصبحتْ هنالك أشياءُ عديدة لا تُسْتَعْمَل، ليْستْ مِمّا يُمكن بيعُه، لكنّ الأسرة لَمْ تَشَأْ أنْ تتخلّصَ منها بِرَمْيِها، وكُلُّها وجدتْ طريقَها إلى غُرفة غريغور، بما في ذلك صندوقُ الرّماد، وصندوق القمامة الذي جاء من المطبخ. وكانت الخادمة، التي من عادتها الإسراعُ الشّديد في ما تقوم به، تَقْذِفُ، بِبساطةٍ، بكُلِّ ما لَمْ يَعُدْ مُسْتعْملا في الحاضر إلى غُرْفَةِ غريغور. ولِحُسْن الحَظّ، فإنّ غريغور كان، على العموم، لا يَلْحَظُ سوى الشّيءِ الذي سَيُقْذَف به، واليد الذي تُمْسِكُ به. ورُبّما كانت الخادمة تنوي أنْ تعود، حين يكون لديها الوقت وتسنحُ الفُرْصَة، لتستردّ تلك الأشياء أو لتَرْميَ بها كلًّها، في آن واحد، إلى الخارج؛ لكنّ الذي حدثَ هُوَ أنّ تلك الأشياء كانتْ تبقى حيثُ سقَطتْ حينَ قُذِفَ بِها، إلّا إذا أزاحَها غريغور من مكانها وهو يَشُقُّ طريقَهُ وسط رُكام سَقْطِ المتاع ذاك، مُضْطَرًّا في البداية، إذْ لَمْ يَكُنْ متوافرًا له مكانٌ آخرُ يزحفُ فيه، وبعدَها أصبح يزحف وسط ذلك الرّكام بلذّةٍ تتزايد مرَّةً بعد أُخْرى، رغم أنّه كان، بَعْدَ تلك الجولات، يَهُدُّه تعبٌ قاتل ويَتملّكُهُ الحُزْنُ، فيبقى بِلا حِراكٍ طِيلَةَ ساعات.

وإذْ كان المستأجِرُون، أحيانًا، يتناولون أيضًا العشاء في

البيت، بِغُرْفَةِ الجلوس المُشْتَرَكة، فإنّ بابَ هذه الأخيرة كان لا يُفْتَحُ خلال بعضِ الأمْسِيَة. ولمْ يَصْعُبْ على غريغور تَقَبُّلُ انغلاق ذلك الباب حين يحصُل، فقدْ حدَثَ، من قبل، أنّ الباب كانَ يُفْتَح، في العديد من الأماسي، دون أنْ تَكُونَ في ذلك فائدةٌ بالنّسبة إليه، إذْ إنّه كان يبقى لابِدًا في الزّاوية الأكثر إظلامًا من الغرفة، دون أنْ تُلاحِظ أُسْرتُهُ شيئًا من ذلك. لكنْ، وَقَعَ مرّةً أنْ تركت الخادمة بابَ غرفة الجلوس مُوارَبًا، وبَقِيَ كذلك حتّى بعد أنْ حَلَّ المساءُ وجاء المُسْتأجِرون وأُشْعِلَ الضّوء. وقدْ اتّخذوا أماكنهم في أحد طرفي المائدة، حيثُ كان الأب والأمّ وغريغور يَجْلِسون في الماضي؛ وَبَسطوا فُوَطَهُمْ، وتناول كلٌّ منهم سكّينًا وشوكة. وعلى الفور ظهرت الأمّ بِعتبة الباب، حامِلةً طَبَقَ لَحْمٍ، وتبعتْها الأخت، جالبةً معها طبقًا تكدّستْ فيه البطاطس. وكان بُخارٌ كثيف يتصاعدُ من الطّبقين. وانحنى المستأجِرون على الطّبقيْن الموضوعَيْن أمامَهُمْ، كما لوْ أنّهُمْ كانوا يريدون تَفَحّصُهما قبل الشّروع في الأكل. وبالفعل، فإنّ الشّخص الذي كان جالسا في الوسط، والذي يبدو أنّهُ كانت له الكلمة العليا من بين الثّلاثة، أعْمَلَ السّكّين في قِطْعةِ لَحْم، حَيْثُ هي في الطّبق، ليتيقّن ممّا إذا كانتْ طَرِيّة أوْ أنّها ينبغي أنْ تُعادَ إلى المَطْبَخ. وبَدا عليه الرِّضا، ولحْظَتَها، بدأت الأمّ والأُخت اللتان كانتا تُراقِبانه في قَلَق، تبتسِمان مُرْتاحتين.

أمّا العائلة، فإنّها كانتْ تتناول طعامها في المطبخ. ومع ذلك، فإنّ الأب، قبل أنْ يمضي إلى المطبخ، عرَّجَ على غُرْفَةِ

الجُلُوس، وطافَ حول المائدة، مُنْحَنِيًا وَكَاسْكيتُهُ في يده. ووقف المستأجرون جميعًا، وَصَدَرَتْ عنهمْ غمغماتٌ لمْ تتجاوزْ لِحَاهُمْ. وحينَ أصْبحوا، مُجَدّدا، فيما بينَهُم، انصرفوا إلى الأكل في صَمْتٍ شِبْهِ تامّ. وقد بدا غريبًا لِغريغور أنّه، من بين الأصْوات التي كانت تنبعثُ أثناءَ تناوُلِهِم الطّعام، إنّما كان يُمَيِّزُ ذلك الذي تُحْدِثُه أسنانُهُم وهي تمضغ، كما لو أنّهُ كان هنالك سَعْيٌ ما إلى أنْ يَتَبَيَّنَ غريغور أنّ الأكْلَ يتطلّبُ أسْنانًا، وأنّ أجْمل فكّين، إنْ خَلَوَا من الأسنان، فهما لا يُفيدانِ في شيء. «إنّني مفتوح الشّهِيّة، حقًّا»، قال غريغور لنفسِه، مَهْمومًا، «لكنْ، ليسَ إلى هذه الأشياء. وفيما يتغذّى هؤلاء المستأجِرون جيّدًا، أموتُ أنا من الجوع!»

خلال ذلك المساء تَحْديدًا، سَمِعَ غريغور الكمانَ وهو يصدَحُ في المطبخ، ولمْ يَكنْ، حسب ما يذْكُر، قدْ سَمِعَ عزفًا خلال الفترة الأخيرة. كان المُسْتأجرُون قدْ أنْهوا عَشاءَهُمْ منذُ هنيهة، وكان الذي في الوَسَط قدْ أخرج مِنْ جيبه جريدةً، وأعطى كلًّا من الشّخصين الآخرين ورقةً منها، وانهمكوا جميعُهم في القراءة وهمْ يُدَخِّنون، وظهورُهم مُسْنَدَةٌ جَيّدًا إلى مساندِ كراسِيِّهِمْ. وإذْ سمعوا العزف على الكمان، أرْهُفوا السّمع ثُمّ وقفوا وَمَضَوْا على رؤوس أصابعهم حتّى باب الرّدهة، وهنالك وقفوا مُتَراصّين. ولا شَكّ أنّ صدى حركاتهم قدْ بَلَغَ المطبخ، فالأب رَفَعَ عقيرتَه، قائِلًا: «أيكونُ هذا العزف، رُبّما، قدْ أزعج السّادة؟ يُمكنُ أَنْ يَكُفَّ على الفور» ـ «بل على العكس!»، قال الشّخص الذي يجلس عادةً في الوسط، «أليس بإمكان الآنسة أنْ تلتحق بنا وتعزف في هاته

الغُرْفة، ذات الطّابَع الألطف، والتي تتيحُ راحةً أكبر؟» ـ «بلى، بِكُلّ تأكيد»، صاحَ الأب وكأنّهُ هو مَنْ يَعْزِفُ على الكمان. وعاد الثّلاثة إلى غرفة الجلوس، وبقوا ينتظرون. وبسرعة، جاء الأب، ناقِلا معه حاملَ أوراق النّوتة الموسيقية، والأمُّ، حامِلَةً تلك الأوراق، كما جاءت الأخت، وفي رفقتها الكمان. واسْتعدّت الأختُ، في هدوء، للعزف. أمّا والداها، اللذان لمْ يَسْبِقْ لهما أنْ أَجَّرا غُرْفَةً من قبل، وبالتّالي كانا يتعاملان مع المستأجرين الثلاثة بتهذيب مُبالَغٍ فيه كثيرًا، فلم يجدا في نفسيهما الجُرْأة اللازمة للجلوس على كُرْسِيَّيْهما الشّخصِيّين! واستندَ الأب إلى الباب، وأدخَلَ يَدَه اليُمنى بين اثنين من أزرار سترة بِزّته، فَقَدْ أَصْبَحَ يُبْقِي سُتْرَتَه مُزَرّرة. أمّا الأمّ، فإنّ أحدَ الثّلاثة قَدّمَ لها كُرْسِيًّا، فأبْقَتْهُ حيثُ شاءت الصُّدْفة أن يَضَعَه لها الشّخصُ المذكور، وهكذا بقيتْ جالسةً في إحدى الزّوايا، ومُنْعَزِلَةً عن الآخرين.

وبدأت الأختُ تعزف. وكان الأب والأمّ، كلٌّ مِنْ مكانِه، يتتبّعان باهتمامٍ بالغٍ حركاتِ يَدَيْها. واجتذبت الموسيقى غريغور فَغامر بالتّقدُّم قليلاً، حتّى إنّ رأسَهُ أصْبَحَ بِداخلِ غُرْفةِ الجلوس. فمنذ وقت، لم يَعُدْ يبدو أمرا باعِثًا على الاستغراب، بالنّسبة إليه، ألا يحْرِصَ كثيرًا على مُراعاةِ الآخرين، عِلْمًا بِأنّ تلك المُراعاة كانت، في الماضي، مِنْ دواعي فَخْرِه. هذا، مع أنّه كان لديه الآن، على الخُصوص، مزيدٌ من الدَّوافع ليتخَفّى عن الأنظار، فالغبارُ الذي كانَ مُنْتشِرًا في غرفته، والذي كان يثُور لدى أدنى حركة، كانَ يُغَطّيه، هو نفسُه، بأكمله؛ كما أنّه كان، إذْ يَزحف،

يسحبُ معه ما علق بظهره وجوانبه مِنْ خيوطٍ وشَعْرٍ وفُتاتِ أكْلٍ؛ وكانَ قد أصبح لامباليا بأيّ شيء، فلمْ يَعُدْ يُبادِرُ إلى الانقلابِ على ظَهره لِيُنظّفَ بدنه بالتّحَكُّك على السّجّادة، كما كان يفعلُ في الماضي، مَرّاتٍ عِدّة في اليوم. وبالرّغم مِن الحال التي كان عليها، فإنّه لمْ يَجِدْ غضاضةً في التّقدّمِ قليلا على أرضيّةِ غُرْفةِ الجُلوس، النّظيفةِ تمامًا.

وعلى أيّ حال، فلمْ يَكُنْ هنالك من يَهْتَمُّ بِأمْرِه. فأنغامُ الكمان كانتْ قد استأثرتْ كُلّيّةً بانتباه أفراد الأسرة؛ وعلى العَكْس، فإنّ المُسْتأجرين، الذين كانوا في البداية قد وقفوا، وأيديهم في جيوبهم، قَريبًا جِدًّا مِنْ حاملِ ورق النّوتة، حَدَّ أنّهُ كان بإمكانِهِمْ جميعًا أنْ يَقرؤوا ذلك الورق ـ الأمر الذي لمْ يكن ممكنًا ألا يُزْعِجَ الأُخت ـ ما لبثوا أن انسحبوا إلى النّافذة، متهامسين، مَحْنِيّي الرّؤوس، وبقوا هنالك، فيما كان الأب يُراقِبُهُمْ، قَلِقًا. لقد كانَ بادِيًا عليهم بوضوح شديد، أنَّ أمَلَهم في سَماعِ عَزْفٍ جَميل، أوْ مُسَلٍّ على الأقلّ، قد خابَ تمامًا، وأنّهمْ قدْ سَئِمُوا ما كانوا يسمعونه من عَزْف، والمُجاملةُ وحدها كانتْ تجعلهم يحتملون الضّيق الذي يشعرون به. وعلى الخُصوص، فإنّ الطّريقة التي راحوا، كلُّهم، ينفثون بها دُخَان السّيكار إلى أعلى، مِنْ أنوفهم وأفواههم، كانتْ تَشِي بتَوتُّرٍ شَديد في الأعصاب. رغم هذا فإنّ عَزْفَ الأُخت كان رائِعًا. لقد كان وجهُها مُنْحنِيًا إلى جانبٍ، وعيناها، اليَقِظتان والحزينتان، كانتا تَتَتَبّعان المُدَرّج الموسيقيّ بِتَمَعُّن. وزحَفَ غريغور بعضَ الشّيء، مُجَدَّدًا، إلى الأمام، مُبْقيا

رأسَه قريبًا جِدًّا من الأرضيّة، عسى أنْ تلتقي عيناه بعينيها. فهل كان حيوانًا، مع أنّ الموسيقى تستثيرُ انفعالاته إلى ذلك الحدّ؟ أحسَّ بأنّ الطّريق نحو الغَذاء المجهول الذي كان يشتهيه، كانتْ تنفتح أمامه. وعَقَدَ العزم على أنْ يَتقدّم، بلا تَرَدُّد، حتّى يَصِلَ إلى حيثُ أُخْتُه، وأنْ يَجْتذِب تنورتَها، لِيُبَلِّغَها، بتلك الطّريقة، أنّه يَرْغَبُ في أنْ تأتيَ إلى غرفته، مصحوبةً بكمانِها، إذْ ما مِنْ أحدٍ، هنا، يُقَدِّرُ عزفَها مِثْلَما يفعلُ هُو. وكان مُبْتغاه ألّا يَتْرُكها تُفارِقُ غُرْفَته، بعد الآن، على الأقَلّ ما دام حيًّا؛ وللمرّة الأولى، فإنّ مَنْظَرَهُ المُرْعِب سيكون نافِعًا؛ وسيحرصُ على أنْ يَكونَ عند كُلّ أبواب غُرفته في نفس الوقت، ويَصُدَّ المُعتدين بِأنْ يَفِحَّ في وُجوهِهم؛ ولكنْ، لمْ يَكُنْ يَوَدُّ أنْ تُكْرَهَ على شيء، بَلْ أنْ تَبْقى بِقُرْبِه بِملْءِ إرادتها؛ وهكذا، فالأُخْت ستكونُ جالِسةً، إلى جانبه، على الأريكة، وسَتُقَرّبُ منه أُذُنها، فَيُسِرُّ إليها بأنّه كانَ قدْ عَقَدَ العزم على إرْسالِها إلى المعهد الموسيقي، وأنّه، لولا المكروه الذي حاق به، لأعلنَ نِيّته تلك للجميع في عيد الميلاد الماضي ـ هل فات الآن عيدُ الميلاد؟ ـ وَلَما بالى بأيِّ اعتراض. وبعد تصريحه ذاك، ستتأثّرُ الأختُ كثيرًا وتنخرِطُ في البُكاء، ولَحْظَتها، يرتفع غريغور ببدنِه حتّى كتفِها، ثُمّ يُقَبّلُها على عُنُقِها، الذي أصْبَحَ، منذ أنِ التحقت بالمحلّ التّجاريّ، عارِيًا مِنْ أَبْسَطِ زينة، ولا تُغَطّيه ياقة.

«ياسَيّد سامسا»، صاح بالأب المُسْتأجِرُ الذي يكون في الوسط، مُشيرًا بإصْبَعِه، ودونما كلمة إضافِيّةٍ منه، إلى غريغور

الذي كان يتقدّمُ في تُؤَدة. وكفّ الكمانُ عن العزف، وابتسمَ المستأجر الذي يكون عادةً في الوسط لصديقيه وهو يَهُزُّ رأسَه، ثُمّ اتّجه ببصره مرّةً أُخرى إلى غريغور. وعِوَضَ أنْ يَطْرُدَ الأب غريغور إلى الخارج، فقد اعتبر، ولا شكّ، أنّ الأمر المُسْتعجَل كان هو طمأنة المُسْتأجِرين، رغم أنّ هؤلاء الأخيرين لمْ تظهر عليهم أيٌّ مِنْ علائم الاضطراب، بل بدا أنّ غريغور كانَ يُسَلّيهم أكثرَ من الكَمان. وهرول الأبُ صَوْبَهُمْ، وفتح ذراعيه في مُحاوَلَةٍ منه لدفعهم إلى الالتحاق بغرفتهم، وفي الوقت نفْسِه، لِحَجْبِ غريغور عن أبصارهم. وفي تلك اللحظة، بدؤوا يغضبون بعضَ الشّيء، دون أنْ يكون واضِحًا هلْ حدثَ ذلك بِسببٍ مِنْ سُلوك الأب، أمْ بِدافِعٍ مِمّا اكتشفوه الآن، ألا وهو أنّ لَهُمْ جارًا مثل غريغور في الغرفة المحاذية لغرفتهم وهم لا يَعْلَمون. وقد طلبوا من الأب أن يُقَدِّمَ لهم توضيحًا، وبِدَوْرِهِم فتحوا أذرعهم، وشرعوا في جَذْبِ شَعْرِ لِحَاهُمْ بأعصابٍ مُتوتّرة وهم ينكصون على أعقابهم، بِبُطْءٍ، نحو غرفتهم. وفي تلك الأثناء، كانت الأخت قد تجاوزت حالةَ الذّهول التي سبّبها لها تَوَقُّفُها مُكْرَهَةً عن العَزْف على الكمان، وبعد لحظة بَقِيَتْ خلالها مُمْسِكةً بالكمان والقَوس، بطرفي يديْها اللتين كانتا قد ارْتَخَتَا، كما بَقِيَتْ مُحَدِّقَةً إلى النّوتات كأنّها ما تزال تعزف، وَضَعَت الكمان على رُكبتي أُمّها التي كانتْ لا تزالُ جالِسةً على كُرْسِيِّها، تتنفّسُ بصعوبة، ونتيجةَ جُهدٍ مُضْنٍ تَبْذُلُهُ رئتاها. ثُمّ هرعتْ صوبَ الغرفة المجاورة، التي كان المستأجِرون، بإلحاح من الأب، يُسْرِعون نحوها أكثر مِنْ ذي

قبل. وكان مُمْكِنًا، لمن يُعاين المشهد، أنْ يَرى الأغطية والوسائد، بمفعول يدي الأخت المتمرِّسَتَيْن، تتطايرُ فوق الأسِرّة، ثمّ تنزِلُ، منتظمةً كأحسن ما يكون. وقبل وصول المستأجرين إلى غرفتهم، كانتْ هي قد انتهتْ من ترتيب أسِرّتهم وانسلَّتْ إلى الخارج. وبدا أنّ الأب قد تملَّكَهُ عنادُهُ مُجَدَّدًا، إلى حدٍّ نسي معه أنّه كان ينبغي له، على أيّ حال، أنْ يُعامِلَ المُستأجرين بما يلزم من احترام، فقد اسْتَمَرَّ في استعجالِهِمْ وَالضَّغْطِ عليهم بلا هوادة، إلى حدّ أنّ المستأجر الذي يكون عادةً في الوسَط، حين بلغ عتبة الغُرْفة، أَهْوَى على الأرضِ بِضَرْبَةٍ مِنْ قَدَمِه أوقَفَت الأب في مكانه، إذْ كان لتلك الضَّرْبة ما يُشْبِهُ صَوْتَ الرّعد. «إنّني أُعْلِن هنا»، قال المُستأجِر، رافعا يده، وباحثًا بعينيه عن الأمّ والأخت، «أنّه، نظرا لظروف العيش المَقيتة السّائدة في هذه الشُّقّة وَلَدَى هذه الأسرة» ـ وهنا، بصَقَ بِقُوّة على الأرض ـ «فإنّي أتخلّى، الآن، عن الإقامة في هذه الغُرْفة. ولنْ أدفعَ أدنى مُقابلٍ عن الأيّام التي قضيتُها هنا؛ بل على العَكْسِ من هذا، ليس مُسْتَبْعَدًا تمامًا أنْ أُطالبكم بتعويضات سيكونُ تَعْليلُها ـ صدِّقوني ـ مَيْسورا جِدًّا». ثُمَّ توقّف عن الكلام، ونظرَ مباشرةً أمامه، كأنّه يتوقّعُ شيئًا ما؛ وبالفعل، فإنّ صديقيه بادرا، على الفور، إلى الكلام: «ونحن أيضًا، نفسخُ عقد الإيجار». لحظتَها، أمسكَ بقبضةِ البابِ، وصفقَهُ من خلفِه صَفْقةً عنيفة مُدَوّية.

مُترنّحًا، تلمّس الأبُ طريقه نحو كُرْسِيِّه، وترك نفسَه يَسْقُطُ فوقه؛ وبدا كأنّما كان يتمطّى قبلَ أنْ يغفو قليلا كما في كلّ

مساء، ولكنّ هزَّهُ لرأسه بانتظام وعُنف كشَفَ عنْ أنّه كان بعيدًا عن أنْ ينام. خلال كُلّ هذا الوقت، كان غريغور قد بقي بلا حِراك، في المكان الذي رآه فيه المُسْتأجرون لأوّل مرّة. فخيبةُ الأمل النّاجمةُ عن إخفاق خُطّته، وربّما، أيضًا، الضُّعْفُ الذي تسبّبَ له فيه امتناعُهُ الطّويل الأمد عن الأكل، جعلاه غيرَ قادرٍ على الحركة. وقدْ كانَ مُتَخَوِّفا منْ أمْرٍ بدا له كأنْ لا مَرَدَّ له: هجمةٌ مُشْتَرَكةٌ عليه تمّ التّوافُق بِصَدَدِها، وما هي إلّا لحظةٌ حتّى تَحْصُل. وقبع في مكانه، مُنْتظرا. بل إنّه لمْ يُجْفِلْ لدى سماعِه الرّنّات القوِيّة التي انبعثتْ من الكمان، إذ انفلت من بين أصابع الأمّ المُرْتعشة وسَقَطَ مِنْ فوق ركبتيها.

«والِدَيّ العَزيزين»، قالت الأخت، وهي تخبط على المائدة بِيَدِها، على سبيل التّمهيد لما سَيَلِي من كلامها، «لا يمكنُ أنْ يدومَ الحال على هذا المنوال. أنتما، رُبّما، لا تُدْرِكان ما يَلْزَمُنا القيامُ به، أمّا أنا، فعلى العكس!أنا لا أريد، أمام هذا الوحش، أن أتلفّظ باسْمِ أخي، ولذا أكتفي بِأنْ أقول: علينا أنْ نُحاوِلَ التَّخلُّصَ منه. لقد قُمْنا بكلّ ما في مستطاع كائناتٍ بَشَرِيّة من أجل الاعتناء به، واحتماله، وتَحَلَّيْنا بالصّبر اللازم لذلك؛ وما مِنْ أحدٍ، في اعتقادي، يُمكنه أنْ يُوجّه إلينا أدْنى لوم.»

«إنّهَا ألْفَ مرّةٍ على حقّ»، قال الأبُ لنفسِه. أمّا الأمّ، التي كانتْ لا تزال تُعاني مِنْ ضِيقِ التّنَفُّس، فإنّها انْخَرَطَتْ في سُعالٍ جافّ، جاعِلةً يدها على فَمِها، وقد ارتسَمَ في عينيها تَعْبيرٌ جُنونِيّ.

هرعت الأخت نحو الأمّ وبِكَفِّها أسندتْ جبينَها. وبدا أنّ الأب شرع في التّفكير في المسألة مُجَدّدًا، على ضوء ما قالته الأخت: فقد انتصب بجذعه على كُرْسِيّه، وفيما كانت أصابعُه تعبث بكاسكيتِ بِزّته المُلقَى وسط الأطباق التي بقِيَتْ على المائدة منذ أنْ تناول المُستأجِرون العشاء، كان هو يُوَجِّه نظراتٍ، من حين لآخر، إلى غريغور، الذي كان لا يزال في مكانه، مُتسمّرًا، لا يَتزحزح.

«علينا أن نُحاوِلَ التّخلّصَ منه»، قالت الأخت، مُتوجِّهةً في هذه المرّة إلى الأب وحده، فالأمّ كانتْ قد اشتدّ عليها السُّعال، فلم يعدْ بإمكانها أنْ تسمعَ ولا كلمة. «إنّهُ سيقضي عليكما، أرى ذلك قادِمًا. فحين يكون الإنسان مُضطرًّا إلى إرهاق نفسِه بالعمل، مثلما هو حالُنا جميعًا، لا يكون بمقدوره، علاوةً على ذلك، أنْ يَتَحمّل هذا التّعذيب الدّائم في البيت. أنا، أيضا، ما عُدْتُ أسْتطيع تحمّل المزيد.» وَألَمّتْ بها نوبةُ انتحابٍ بلغتْ من عُنْفِها أنّ الدّموعَ تساقطتْ على وجه الأمّ نفسِه، وقدْ بادرت الأخت إلى مَسْحِها بحركة آليّة.

«لكنْ يا صغيرتي»، قال الأب، مُتَعَطِّفًا، وَبِتَفَهُّم مُدْهِش، «ما الذي يُمكنُنا أنْ نفعلَه؟»

اكتفَت الأخت بِهزّ كتفيها، دلالةً على البلبلة التي كانت قد اعترتْ ذهنها الآن، أثناءَ بُكائها، بعدَ أن كانتْ واثقةً مِنْ نَفْسِها قبل لحظات.

«لوكان قادِرًا على أنْ يَفْهَمَنا...»، قال الأب، وكأنّه يتساءل،

نوعًا ما؛ وأشارت الأخت، وهي مستمرّةٌ في الانتحاب، إشارةً عنيفةً بيدها، تؤكّدُ من خلالها أنّ أمرًا مثل ذلك لا يُمْكِنُ تَصَوُّرُه.

«لوكان قادِرًا على أنْ يَفْهَمَنا...»، كَرَّرَ الأب، وقد أغمَضَ عينيه لِيستوعبَ اقتناعَ الأخت باستحالة الفهم تلك، «لأمكننا، رُبّما، أنْ نتوصّل معه إلى اتّفاق، لكنْ، والحالُ على ما هي عليه...»

«ينبغي أنْ يمضي من هنا»، صاحت الأخت، «إنّه المَخْرَج الوحيد، أيّها الأب. عليك، فحسب، أنْ تحاول التّخلُّص مِنْ فكرةِ أنّ هذا هو غريغور. لقد ظنَنّا ذلك لوقتٍ طال كثيرًا، وهذا هو سببُ شقائنا! لكنْ، كيفَ يُمكنُ أنْ يكونَ هذا هو غريغور؟ لو أنّه غريغور، إذن لكان قدْ أدْرَكَ بِسُرْعة أنّ التّعايُشَ بين بني البشر ومثل هذا الحيوان مُسْتحيل، ولمضى من هنا باختياره، ووقْتَها، لنْ يكونَ لنا، بعدُ، مِنْ أخٍ، لكنْ كانَ سَيُمكنُنا أنْ نَسْتَمِرّ في العيش وأنْ نُبَجِّلَ ذِكْراه، أمّا الآن، فإنَّ هذا الحيوان يُطارِدُنا، وَيَطْرُد المُسْتأجرين، راغِبًا، فيما يظهر، في أنْ يستأثِر بالشُّقَّةِ كُلّها، وأنْ يدفعنا إلى النّوم في الشّارع...»، وفجأةً، رفعتْ عقيرتَها: «لكنْ، انظُرْ، يا أبي، ها هو يُعيدُ الكَرّة!» وفي ذُعْرٍ شديد، لمْ يستطِعْ غريغور أنْ يفهمَ دوافِعَه، ابتعدت الأخت عن الأمّ نَفْسِها، إذ انقذفتْ، بما في الكلمة من معنى، مِنْ مَكانِها جنبَ كُرْسيّ الأمّ، كما لو أنّها كانت تُفَضّلُ التّخلّي عن هذه الأخيرة على البقاء دانِيَةً من غريغور، ولمْ تتوقّفْ إلا وهي خلفَ

الأب، الذي بلبلهُ تَصَرُّفُها، فنهض، بِدوره، ومدّ نحوها يديه، غيرَ باسِطٍ إيّاهُما تمامًا، كأنّهُ يُرِيدُ أنْ يَحْمِيَها.

لكنْ لمْ يَكُنْ قد جالَ بِبالِ غريغور أنّهُ سَيُخيفُ أحدًا ما، وعلى الخُصوص أختَه. فهو كان، فحسب، قد بدأ يَسْتدير ليلتحِقَ بغرفته، لكنّ حَرَكَتَه تلك نَتَجَ عنها أمر مثير، فنظرا لسوء حالته، وجد نفسَهُ مُضطرّا، من أجل إتمام نِصْف الدّورة، أنْ يَسْتعين بتحريكِ رأسِه، وهكذا كان يرْفعُه، المرّة تلو الأخرى، لكنّ رأسَه، في كلّ مرّة، كان يسقط ويرتطِم بالأرضِيّة. وتوقّف غريغور، وأجال بصرَه حواليه. وبدا له أنّ نواياه الحسنةَ قد اتّضَحتْ؛ وإذنْ، فحالةُ الذُّعْر كانت عابِرَةً. الآن، ينْظُرُ إليه الجميع صامتين، وحَزانى. فَالأمّ كانتْ مُسْترخِيةً على كُرْسِيِّها، وقدْ مدّتْ قدميها وضغطتْ ساقا على ساق، وعيناها شِبْهُ مُغْمَضَتَيْن بسبب التّعب؛ أمّا الأب والأخت، فكانا متحاذِيَيْن، وكانت الأخت تُحيط بِذراعِها عُنُقَ الأب.

«ربّما يكون قد أصبح لي الحقّ في أنْ أستدير»، قال غريغور في نفسِه، وَشَرَعَ في المُحاولة. وقد جعله الجُهد يلهث، بل واضْطُرّ، عددًا من المرّات، إلى أن يتوقّف ليستريح. وَلمْ يَسْتَحِثّه أحدٌ على الإسْراع، وتُرِك لهُ أنْ يتصرّف بحسب رغبته. وحين أكمل نِصْفَ دَورة، مَضى، عائِدًا، في خطٍّ مُسْتقيم. وقد تعجَّبَ مِنْ طولِ المسافة إلى غرفته، ولمْ يستطِعْ أنْ يَفهم كيف أنّه، قبل لحظة، اسْتطاع أن يقطعها، قادِمًا، دون أنْ يلحظَ ذلك، بالرّغم من حالة الضّعْف التي كان عليها. ولأنّ همّه الوحيد كان أنْ

يزحف، وأن يفعل ذلك بأسرع ما يستطيع، فإنّه لم يلاحظْ، تقريبًا، أنّه لم تَبْدُرْ عن أيٍّ مِنْ أفراد أسرتِه كلمةٌ أو صوتٌ يُمكن أنْ يُسَبّبا له إزعاجًا. وبعد أنْ بَلَغَ عتبةَ الباب، فحسب، استدار برأسِه، بصورة غير كاملة، لأنّه استشعَرَ تَصَلُّبًا في عنقه، ولكنّ حركته تلك كانتْ كافيةً ليرى أنّ ما من شيء خلْفَه تغيّر، سِوى أنّ الأخت كانتْ قدْ وقفتْ. وَطالتْ نَظْرتُه الأخيرة الأمّ، التي كانت، الآن، تَغُطّ في النّوم.

وما إن دخلَ غريغور إلى غرفته حتّى صُفِق بابُها على الفور، ثُمّ أُغلِقَ بالمفتاح وبالمزلاج. فُوجِئ غريغور بِالصّخب الذي انبعثَ من خلفِهِ جَرَّاءَ إغلاقِ الباب، وأصابه خَوْفٌ شديد، إلى حَدٍّ أنّ قوائمه الصّغيرة انهارتْ مِنْ تحتِه. إنّها الأخت التي تَصَرَّفَتْ بأقْصى سُرْعة. كانتْ قد نهضتْ، وبقيتْ تنتظر، ثمّ قفزتْ بِخِفّة إلى الأمام، دون أنْ يكون غريغور قد سمع مِن حركتها ولا نأمة؛ وفيما كانتْ تُديرُ المفتاح في القُفْل، اكتفت بِقَول: «أخيرًا!»، مُوَجِّهةً إياها إلى الوالدين.

«والآن؟»، تساءل غريغور، وهو ينظُرُ حواليه في الظّلْمة. ولم يتأخّر في اكتشاف أنّهُ، الآن، قد أضحى عاجزا تمامًا عن الحَركة. لمْ يُدهِشْهُ ذلك، بل إنّ ما بدا لهُ غيرَ طبيعيٍّ تمامًا، هو أنّه، حتّى هذا الوقت، كان بمستطاعه أنْ يتنقّل على قوائمه تلك، الصّغيرة والنّاحلة جِدًّا. وفيما عَدَا هذا، فإنّه شعرَ ببعض الارتياح. حَقًّا، كانَ الألمُ مُسْتَشْرِيًا في سائر جَسَدِه، لكنْ كان لديْهِ انْطباعٌ بأنّ حِدّةَ آلامه كانتْ تَخِفّ، تدريجيّا، وتتضاءل، وأنّها آيِلةٌ، في

نهاية المَطاف، إلى التّلاشي كُلّيةً. وكان قد فَقَدَ الإحساس، إلى حَدٍّ بعيد، بالتّفّاحة المُهتَرِئة المُنْغَرِسَة في ظهره وبالمنطقة المُلْتهبة فيما حولها، والتي كان يُغَطّيها غُبارٌ دقيق. واسْتذْكَرَ عائلتَهُ بحنان وحُبّ. وكانتْ فِكْرةُ ضرورةِ اختفائه قد أَضْحتْ أكثرَ تَرسُّخا لديه، رُبّما، منها لدى أختِه. واستمرّ في تأمُّلاتِهِ الغامضة، في حال من السّكينة، إلى أنْ أعلنتْ ساعةُ البُرْجِ الثّالثة صباحًا. وَشَهِد الضّوءَ وقدْ بدأ ينتشر في الخارج، أمام النّافذة. ثمّ هوى رأسُهُ أرْضًا، رَغْمًا عنه، ومِنْ منخريه، انْطلق، في وَهَنٍ، آخِرُ أنْفاسِه.

وَصَلَت الخادمة في الصّباح الباكر ـ وهي امرأةٌ مشحونةٌ بالطّاقة وسرِيعةُ الحركة إلى الحدّ الذي كانتْ تَصْفِقُ معهُ كلَّ الأبواب بداخل الشّقّة، رَغْمَ أنّهُ قد طُلِبَ منها مِرَارًا أنْ تكُفَّ عن ذلك، وقدْ نتج عنْ تَصَرُّفِها ذاك أنّ أحدًا في الشُّقّة لمْ يَكُنْ بَعْدُ لِيَجِدَ السّبيل إلى نَوْمٍ هادئ بعدَ وُصولِها ـ وَلَمْ تُلاحِظ شيئًا غير عَاديّ لدى زيارتِها القصيرة المألوفة لغُرْفَةِ غريغور. وقد حسِبَتْ أنّهُ كان يتعمّدُ البقاءَ بلا حِراك، مُتظاهِرًا باستشعار الإهانة، ذلك أنّها كانتْ تَنْسُبُ إليه كلَّ ضُروبِ الذّكاء. وإذْ كانتْ، بالصّدفة، تحملُ في يدها المكنسة الطّويلة، فقد استعملتها لِتُدغدِغَ غريغور قليلا. ولمّا لمْ تَبْدُ منه استجابة، اغتاظتْ منه، فَنَخَزَتْه في هذه المرّة، ولمْ يُسْتثر انتباهُها بشكل خاصّ، إلا حين دفعتْهُ مِنْ مكانه، فلمْ تلقَ أيّ مقاومة. وسرعان ما أدركتْ حَقيقة الأمر، فانْفتحتْ عيناها على سَعَتِهما وصَفَرتْ فيما بين أسنانِها؛ ودون أنْ تتأخّر أكثر، فتحتْ بِدفعةٍ واحدة باب غرفة النّوم، وصاحتْ في الظّلام بحنجرة

قويّة: «تعالوا لتروا ما وقع، لقد نَفَق؛ إنّه هناك، على الأرض، نافقٌ تمامًا!»

وجلس الزّوجان سامسا، مسْتقيمي الجذعين في سرير الزّوجِيّة؛ وقد وجدا عناءً كبيرًا في التّغَلُّبِ على الخوف الذي اعتراهُما لدى سماعِهما صوتَ الخادمةِ المرتفعَ القويّ، وذلك قبل أنْ يَتَمَكّنا من استيعاب النّبأ الذي كانتْ قد حملتْهُ إليهما. ثُمّ إنّهما نزلا من السّرير بسرعة كبيرة، كلٌّ مِنْ جانب؛ ألقى السّيّد سامسا بالبطّانية على كتفيه، وخرجت السّيّدة سامسا بقميصِ النّوم فحسب، وعلى تلك الحال دَخَلا إلى غرفة غريغور. في تلك الأثناء، انفتح بابُ غُرْفةُ الجلوس بِدَوْرِه، فغريته كانتْ، منذ مجيء المُسْتأجرين، قد انتقلت للنّوم فيها. كانتْ غرِيته في كامِلِ ثيابِها، كأنّها لمْ تنم البتّة، وبَدا أنّ شُحوبَها يُؤَكِّدُ ذلك. «ميِّت؟» قالت السّيّدة سامسا، وهي تنظر متسائلةً إلى الخادمة، رغم أنّهُ كان بإمكانِها أنْ تتيقّن بنفسِها من الأمْر، بِأنْ ترى ما حدث بأمّ عينها. «هذا فِعْلا ما أعتقِدُه!»، وللتّدليل على ما قالتْ، دَفَعَت، بنخزة قويّة من مكنستها، بجُثّة غريغور جانِبًا، لمسافة طويلة بعض الشّيء. وتَحَرَّكَت السّيّدة سامسا، كأنّها تُريد أنْ تُوقِف حركة المكنسة قبل أنْ تصل إلى جسد غريغور، لكنّها لمْ تَفْعَلْ. «حسنًا»، قال السّيّد سامسا، «بوسْعِنا الآن أنْ نحمدَ الله» ورسَمَ على صَدْرِهِ إشارةَ الصّليب، ومثلَه فعلت النّساء الثلاث. قالت غريته، التي لم تبتعد بعينيها عن الجُثّة: «انْظروا، كمْ كان هَزيلا! لقد مَرّ عليهِ زمنٌ طويلٌ، لَمْ يأكلُ خلاله شيئًا. فالوجبات كانتْ تخرجُ من غُرْفَته،

كما تَدْخُل.» وبالفعل، فإنّ جِسْم غريغور كان بلا سُمك ولا لَحْم، والآن، فحسب، أصبحَ مُمكنًا إدراكُ ذلك، إذْ لَمْ يَعُد ذلك الجسد محمولا على القوائم الصّغيرة، ولم يَعُد هنالك ما يُلْهي العيون عنْ تَفَحُّصِه.

«ادخُلي عندنا للحظة، يا غريته»، قالتْ السّيّدة سامسا، وعلى شفتيها ابتسامة كئيبة، فلحقَتْ غريته بالوالدَين إلى غُرْفة النّوم، ليسَ مِنْ دونِ أنْ تنظر خلْفَها، إلى حَيْثُ الجُثّة. وأغلقت الخادمة الباب وفتحت النّافذة على مِصْراعَيْها. وحتّى في ذلك الصّباح الباكر، كان الهواءُ البارد قدْ مازَجَهُ بَعْضُ الدّفء، فشهرُ مارس (آذار) كانَ في نهايته.

وخرج المستأجِرون الثّلاثة مِنْ غُرْفتهم، وباستغرابٍ ظاهر، بحثوا بعيونهم عن طعامِ الإفطار؛ لقدْ تمّ نِسْيانُهُمْ. «أين الفُطور؟» سأل السّيّد الذي يكون عادةً في الوَسَط الخادِمَةَ، بنبرةٍ ساخِطة. لكنّ هذه وضعتْ إصبعها على شفتيها، وأشارتْ إليهم، سَريعًا ودون أن تنطق بكلمة، بأنْ يَمضوا إلى غرفة غريغور. وقد دخلوا إليها، وبقوا واقفين وأيديهم في جيوب ستراتِهِم التي كانتْ قد بدأتْ تهترئُ قليلا، مُشَكّلين دائرةً حول جثّة غريغور في الغُرْفة التي عمّها الآن ضوءُ النّهار.

ثُمّ انفتحَ بابُ غُرْفة النّوم، وبرز منه السّيّد سامسا، في بِزّة العمل، وقدْ تمسّكتْ زوجتُه بأحد ذراعيه، وابنتُه بالآخر، وكان باديا عليهم أنّهم قد بكوا، وبين الفينة والأخرى، كانتْ غرِيتِه تضغط وجهها على ذراع الأب.

«اتركوا شُقَّتي حالا!» قال السّيّد سامسا وهو يُشيرُ في اتّجاه الباب، دون أنْ يَفْصِل ذراعيه عن ذراعي المرأتين. «ما الذي يعنيه هذا؟» قال المستأجر الذي يكون عادةً في الوسط، مُرْتبكًا بَعْضَ الشَّيء، وعلى شفتيه ابتسامة مُفْتَعَلَة. أمّا الآخران، فكُلٌّ منهما جعل يديه وراء ظهرِه، وبدأ يفركهما ببعضهما، كما لو أنّهما كانا فَرِحين مسبقًا بنزاعٍ كبير قادم، سينتهي، بالضّرورة، لصالحهما. «هذا يعني ما قلْتُه تمامًا»، أجاب السّيّد سامسا وهو يتقدّمُ، محفوفًا بمُرافقتيه، نحو المُسْتأجِر في خَطٍّ مُسْتقيم. وبقي هذا الأخير، في البدء، واقفًا في مكانه، مِنْ دون أنْ يتكلّم، وهو ينظر إلى الأرض، كما لو أنّ الأشياء كانتْ بِصدد الانتظام في رأسِه بِشكلٍ جديد. بعد ذلك، قال: «فلنذْهبْ، إذَنْ»، وتطلَّعَ بنظراتِهِ إلى السّيّد سامسا، كما لو أنّ إحْساسًا بالتّواضُع قدْ غَمَرَه فجأةً، وجعله يطلبُ موافقةً جديدة حتّى على قراره هذا. اكتفى السّيّد سامسا بِأنْ تَوَجَّهَ لهُ بِهَزّاتٍ مُتوالياتٍ وسريعةٍ مِنْ رأسَه، وهو يُحَمْلِقُ مِنْ فَرْطِ الدّهْشَة. إثْر ذلك، مضى المستأجر، بالفعل، بِخُطًى كبيرة، صوبَ الرّدهة؛ وكان صديقاه، منذ هنيهة، يُصْغِيان إلى ما يدورُ من حديث، وقد توقّفا عن فَرْكِ أيديهما، فتقافزا في أعقاب المستأجر الذي يكونُ عادةً في الوسط، كأنّما تَوَجَّسَا من أنْ يسبقهما السّيّد سامسا إلى الرَّدْهة، فيقطع الاتّصال بينهما وبين زعيمهما. وفي الرّدهة، أخذوا قُبّعاتهم مِنْ على المشجب، وعِصِيَّهم مِنْ سَلّة المِظَلّات، وانحنوا في صمت، ثمّ غادروا الشُّقّة. وانتابَت السّيّد سامسا إزاءهم رِيبَةٌ، سيظهرُ أنّها بلا أساس،

فتقدّم ومعه المرأتان صَوْبَ بسطة السُّلّم، واتّكؤوا جميعهم على الدّرابزين، مُتتبّعين بنظراتهم الأشخاص الثّلاثة وهم ينزلون السُّلّم الطّويل، ببطء أكيد، ولكن مِنْ دون توقُّف، وفي كُلِّ طابق، كانوا يختفون حين يصلون إلى نُقطة ما في مُنعرَج السّلّم، ويظهرون مُجَدَّدًا للْعِيَان بعد لحظات؛ وكانوا كلّما أمعنوا في النّزول، يتضاءلُ اهتمامُ أُسْرَةِ سامسا بِهِمْ، وقد مرّ بجنبهم صبيٌّ جَزّار، صاعِدًا في زُهُوّ، وسَلّتُه فوق رأسِه، ثمّ أصبح يَعْلوهمْ كثيرًا. لحْظَتَها، ودونما إبطاء، غادرَ السّيّد سامسا والمرأتان الدّرابزين، وعادوا إلى شُقّتِهِم، شاعِرِين كما لو أنّ عبئًا ثقيلا قد انزاحَ عن كواهلهم.

وقد قرّروا أنْ يمنحوا أنفُسَهم الرّاحة اللازمة، ثمّ يمضوا للتّنزّه، خلال هذا اليوم؛ ولم يكونوا وحسبُ يستحِقّون هذه الإجازة، بل كانوا في أشدّ الحاجة إليها. وهكذا جلسوا إلى المائدة، وكتبوا ثلاثَ رسائل اعتذار: من السّيّد سامسا إلى إدارته، ومن السّيّدة سامسا إلى صاحب مَحَلّ الأزياء، ومن غريته إلى صاحب المحلّ التّجاريّ. وبينما هم يكتبون، دخلتْ عليهم الخادمة لتقول إنّها ستنصرف، فَعَمَلُ الصّباح قد انتهى. واكتفى الثلاثة المنشغِلون بالكتابة، في بادئ الأمر، بِهزّ رؤوسِهِمْ، دون أنْ يَنظروا في اتّجاهها، لكنْ بدا أنّها لمْ تُقرّر الابتعاد، فانتهى بهم المطاف إلى أنْ رفعوا نحوها أبصارهم، في حَنَق. «وإذَنْ؟» سألها السّيّد سامسا. بقيت الخادمة واقفةً بالباب، وعلى شفتيها ابتسامة كأنّها تحمل للأسرة نبأً سارًا، لنْ تُفْصِحَ عنه إلّا بعْدَ أنْ

يُطْرَحَ عليها العديدُ من الأسئلة. وكانت ريشةُ النّعامة، الصّغيرةُ المنتصبةُ على قُبَّعَتِها، والتي كان السّيّد سامسا يتضايقُ منها منذ أن رأى هذه الخادمةَ للوهلة الأولى، تتمايل بِخِفّةٍ في كُلّ الاتّجاهات. «إذن، ماذا تُريدين، بالضّبط؟» سألتْها السّيّدة سامسا، وكانت الخادمة تحترمُها بِشكلٍ خاصّ. «حسنًا...»، قالت الخادمة، وهي تضحك بِصورةٍ جعلَتْها تتوقّف بِضْعَ لحظاتٍ عن الكلام، «فيما يَخُصّ ذلك الشّيء الذي في الغُرفة المُجاورة، ليس عليكم أنْ تشغلوا بَالَكم بالبحثِ عن طريقة للتّخلُّص منه. لقد تمّ ذلك». عادتْ السّيّدة سامسا وغريته إلى كتابة رسالتيهما، مُجَدّدًا؛ وبدا لِلسّيّد سامسا أنّ الخادمة كانتْ تنوي أنْ تَدْخُلَ في وَصْفٍ مُفَصّل لِما قامتْ به، فَصدَّها بحزم، بحركةٍ من يَدِه. وإذْ أدركتْ أنّ ما كانتْ تعتَزِمُهُ من سرْدٍ تفصيليّ لِحِكايتها لَمْ يَكُنْ مرغوبًا فيه، تذكّرتْ أنّهُ كان عليها، في الواقع، أنْ تستعْجِل في الذّهاب، فرفعتْ صوتها بنبرة فيها شيء من التّذمُّر: «وداعا، كلّكم»، واستدارتْ بِحركة عنيفة، وغادرت الشّقّة، بعد أن صَفَقَت الأبواب بِشكل رهيب.

«هذا المساء، سأطْرُدُها»، قال السّيّد سامسا، ولم تُجِبْهُ لا زوجتُه ولا ابنتُه، فقد بدا أنّ الخادمة عكّرت الصّفو الذي كانتا بالكاد قد استعادتاه. ونهضَتَا، وَمَضَتَا صَوْبَ النّافذة، وبقيتا هنالك، متعانقتين. واستدار السّيّد سامسا نحوهما، وهو على كُرْسِيّه، ونظر إليهما، صامتا، للحظة وجيزة. ثمّ ناداهما: «تعاليا إلى هنا. فلنَنْتهِ، إذن، من تلك الحكايات القديمة. واهتمّا بي أنا،

أيضًا، بعضَ الشّيء.» واستجابتْ له المرأتان على الفور، فهرعتا إليه، وداعبتاه، وبعدها، أنْهتا رسالتيهما بِسُرْعة.

إثْرَ ذلك، غادروا ثلاثَتُهُمْ الشّقّة مترافقين، وهذا ما لمْ يَكنْ قد حدثَ منذ أشهُر، واسْتَقَلُّوا التّرام ليمضُوا إلى خارج المدينة، بهدف التّرويح عن أنفسهم. ولمْ يُشارِكْهُم أحدٌ القمرةَ التي كانوا قد اتّخذوا فيها أماكنهم، والتي كانتْ أشِعّة الشّمس تنشرُ في جنباتها ضوءَها ودفئها. وقد استندوا إلى ظهور مقاعِدِهِم، في كامل الارتياح، وشرعوا في استشرافِ المستقبل، وتوصّلوا، بعد التّمحيص، إلى عدم وجود داعٍ إلى أنْ يقلقوا بِصدد أيّامهم القادمة. ففيما قبل، لمْ يحدُثْ قطُّ أن سألَ أحدُهم الآخر عن عمله، والآن، اتّضَحَ لهمْ أنّ وظيفةَ كُلٍّ منهم مُهِمّةٌ جِدًّا، وعلى الخُصوص، واعدةٌ بخير كثير، أمّا في الوقت الرّاهن، فإنّ التّحسّن الملموس حقًّا في وضعيّتهم، هو ذلك الذي سينجم، بِيُسْرٍ وبلا جِدال، عَنْ تغيير مسكنهم. لقد كانوا يرغبون الآنَ في استئجار شُقَّةٍ تكون أصغرَ وأرخص من شُقّتهم الحاليّة، التي كان قد اختارَها غريغور، كما تكونُ أكثَرَ منها تَيْسيرًا للشّؤون العمليّة، وموقِعُها أفضل. وفيما كان الحديثُ يدور بينهم، نَظَرَ كُلٌّ من السّيّد والسّيّدة سامْسا، في نفسِ اللحظةِ تقريبًا، إلى ابنتهِمَا التي كانت تزدادُ حيويّةً، وخَطَرَ لهما معا أنّ الابنة، رغم النّكد والمصاعب التي كانتْ قدْ أذْبلتْ وَجْنتيها، قدْ تفتّحتْ وأَيْنَعَتْ مُؤَخَّرًا، فإذا بها شابّةٌ مُزْدانةٌ بالجَمَال. بعد ذلك، لم يعودا يتكلّمان كثيرًا، وأصبحت وسيلةُ التّواصُل بينهما هي النّظرات التي

كانا يتبادلانها بصورةٍ لاإراديّةٍ تقريبًا، وفكّرا أنّه، عمّا قريب، يحينُ وقتُ البحث لها عن زوج لائق. وحدثَ ما رأيا فيه ضَرْبًا من التّأكيد لأهمّيةِ أحلامِهِمَا الجديدة ومشاريعهما الجميلة، لَمّا بلغ بهم القطارُ نهايةَ الرّحلة، فقدْ نَهَضَت الابنةُ قبلهما، وتَمَطّتْ، مُمدِّدةً جسدَها الشّابّ.

□□□

عن «التّحوّل»

(خواطر سريعة... للتّأمّل)

مبارك وساط

كلُّ ما ليس أدبًا يُضايِقُني وأكْرَهُه

(ف. كافكا)

يقدِّم لنا كافكا واقعة «التّحوّل» الجسدي لبطله، غريغور سامسا، في الجملة الأولى من قصّته الطّويلة، «التّحوّل»: «إذ استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، على إثر أحلامٍ سادها الاضطراب، وجد أنّهُ قد تحوّل، وهو في سريره، إلى حشَرة عملاقة». بالطّبع، فإنّ تحوّلاتٍ من هذا القبيل هي من تيماتِ أساطيرَ وحكاياتِ وقصصٍ (خرافيَّةٍ وغيرِها)، وُجِدتْ، ولا شكّ، في الغالبيّة العظمى من الثّقافات الإنسانِيّة. هنالك حالات معروفة ـ أدبيّا ـ لهذا الصّنف من التّحوّلات، نجدُها، مثلا، في قصص كِتاب «التّحوّلات» لأوفيد، كما في «الحمار الذّهبيّ» لأپوليوس، وفي العديد من قصص «ألف ليلة وليلة»، على سبيل المثال لا الحصر. ولا شكّ أنّ قصص هذا الصّنَف من التّحوّلات، في بعض الثّقافات، وفي الأزمنة القديمة على الخصوص، كانت تجدُ في الاعتقاد في التّناسُخ ما يسندها في المخيال الشّعبيّ. في قاموس «مُحيط

المُحيط» (للمعلّم بطرس البستاني)، وفي مادّة «المَسْخ»، نقرأ ما يلي: «مَصْدَرٌ. وعند الحكماء انتقالُ النّفس النّاطقة من بدن الإنسان إلى بدن حيوانٍ آخر يُناسِبُه في الأوصاف كبدن الأسد للشّجاع وبدن الأرنب للجبان. وهو من أقسام التّناسُخ...». وفي «ألف ليلة وليلة»، نجد أنّ هذا النّوع من «التّحوّلات» يَكونُ نتيجةً لِعمليّاتِ «مَسْخ»، تتمّ، عامّةً، بإرادة شخص ذي قدرة خارقة (سِحْرِيّة)، إذْ يُسَلِّطُها على شخصٍ آخر، فينقلب هذا الأخير، بمفعولها، إلى مِسْخٍ، أيْ إلى حيوان أو كائن نصفُه إنْسان ونصفهُ الآخر حجر... وكما كانت هنالك قصص أسطوريّة لدى اليونان القُدامى عن عمليّات مَسخ يُقدِم عليها آلهتهم تجاه بعضٍ من بني البشر، فإنّنا نجد مِنْ رواة الحديث النّبويّ المُسْلِمين، من يروي، مثلا، حديثًا يُنْعَتُ ب«حديثِ الضِّباب»، وفيه أنّ «أمّة من بني إسرائيل مُسِخَتْ في الأرْضِ دوابَّ...» وقدْ آثَرْنا اعتماد كلمة «تحوّل»، عوض «مَسْخ»، كعنوان لِقِصّة كافكا الطّويلة المنشُورة في هذا الكتاب، لأسباب، نذكُرُ بعضها في ما يلي:

١ ـ إنّ الحديث عن «مَسْخ» يفترض أنْ يكون هنالك «ماسِخ» ـ قُوّة خارقة أو ساحر ـ ومَمْسوخ، أي شخصٌ ينقلبُ إلى مِسْخ، ولا حُضورَ ـ صريحًا أو ضِمنِيًّا ـ لهذا النّوع من القوى ولا لسَحَرة أو ما يُشْبِههم في عالَم قِصَّة كافكا التي نتحَدَّثُ عنها. بالطّبْع، فإنّ القارئ قد يعتبر أنّ غريغور اكتَسَب هيئة كائن مَسيخ (فهذا الأخير قد تحوّلَ إلى حشرة عملاقة ـ في حجم كلب، حسب قراءة فلاديمير نابوكوف لِ«التّحوّل»!) بمعنى مجازي لنعت «مسيخ»، ومع ذلك، فإنّ

اعتماد مصدر «مَسْخ» كعنوان لقصّة كافكا هاته سيُدْخِلُها في خانة هي منها براء، ويُسيءُ إلى عمليّةِ تلقّيها مِنْ قِبَل القارئ.

٢ ـ لا تَحْكي قصّة كافكا هاته سيرورةً ما مُفَصّلةً لِ«تحوُّلِ» غريغور سامْسا إلى «حشرة عملاقة»، فهي لا تروي لنا، مثلا، كيف أنّ شخصاً ما يَقوم بانتهاك مُحَرَّمٍ ـ كما في أغلب قصص كتاب «التّحوّلات» لأوفيد، على سبيل المثال ـ فيحلّ به عقابٌ إلهي أو لعنةٌ يَتِمّ بمُقتضاها «مَسْخُه»، ولا هي تحكي لنا عن وقائع سبّبتْ ضغينةَ إلهٍ ما على ذلك الشّخص الافتراضيّ، فقام بِ«مَسْخه» (كما في بعض الحكايا الأسطوريّة اليونانيّة)، كما أنّها لا تروي لنا أحْداثًا أدَّتْ إلى تعرُّضِ ذلك الشّخصِ، الافتراضيّ دائمًا، لِنِقمةِ ساحرٍ، مِمّا جعل هذا الأخير «يَمْسَخُه»، أي يُسَبِّبُ لهُ تحوّلا جِسْمانيًّا خارقا ومُخيفًا ـ كما هو الحال في عدد من القصص الواردة في «ألف ليلة وليلة»، على سبيل المثال ـ بل إنّ تحوُّلَ غريغور سامْسا إلى «حشرة عملاقة» يُقَدَّمُ إلينا في الجُملة الأولى من قِصّة كافكا هاته ببساطة تامّة، كما لو أنّ الأمر عبارةٌ عن حَدَثٍ عاديّ، لا يحتاج سببًا خاصًّا لِيَقَع. يُمكِنُ القول بأنّ تلك الواقعة تبدو، بقلم كافكا، شبيهةً بأكسيومٍ رياضي في كونِها لا تتطلّبُ تبريرا ولا تفسيرا، أيْ أنّه ليسَ لها «ما قَبْلها»، فكلُّ ما هنالك هو أنّ ثمّة تحوُّلا جسديًّا قد حدث (وهو تحوُّلٌ رهيبٌ ولا شكّ، ولكنّ غريغور سامسا نفسه لا يستشْعِرُهُ كذلك). هكذا يكونُ الكلامُ عن «مَسْخ»،

بصدد قِصّة كافكا التي تعنينا هاهنا، أمْرًا مناقِضًا ـ ومُقَوِّضًا ـ للمنطق الدّاخليّ لتلك القِصّة.

٣ ـ تبدأ قِصّة كافكا هاته بالجملة التي أوردناها سابِقًا: «إذ استيقظ غريغور سامسا ذات صباح، على إثر أحلامٍ سادها الاضطراب، وجد أنّهُ قد تحوّل، وهو في سريره، إلى حشرة عملاقة». يُقَدِّمُ لنا «التّحوّل» الذي طرأ على أنّه لا يدعو حَقًّا إلى الاستغراب، على أنّهُ واقعةٌ بسيطةٌ وَقَعتْ وكفى، كما سبق الإلماعُ إلى ذلك. فَتعبير «وجد أنّهُ قد تحوّل، وهو في سريره، إلى حشرة عملاقة»، يتّسِمُ، في هذه القِصّة، بنفسِ بساطة عبارةٍ من قبيل: «وجد أنّ العرق ينضَح من جبينه»، أو «ألْفى نفسَهُ مزكومًا»... ولِذا، فإنّ عددًا مِن الدّارسين يُلِحّون على أنّ الفنتاستيك في قِصّة كافكا هاته يَنحصِر في هذا المُعْطى الأوّل، وبعدَهُ، وإثر تقبُّله من طرف القارئ كما يستوجبُ ذلك الميثاق الضّمني بين كتّاب السّرد القصصيّ وقُرّائهم (وهو ميثاق ينصّ، من بين ما يَنُصّ عليه، على كَبْحِ أوْ تعليق عدمِ التَّصْديق)، تكتسي القِصّةُ صبغةً واقعيّةً (وصف الحياة اليوميّة لعائلة غريغور البورجوازيّة الصّغيرة بعد ما وقع لغريغور، والحياة اليوميّة لغريغور نفسِه، وهو في هيئته الحَشَرِيّة المُكْتَسَبة، وقدْ بقي وَعيه وعواطفه على ما كانتْ عليه قبل «التّحوّل»...).

٤ ـ إنّ تحوُّلُ غريغور البَدَنِيّ سيُشَكِّلُ فاتحةً لِتَحوُّلٍ آخر، هو ذاك الذي سيطرأ على عائلتِه. وإذا كان كافكا ينتهي من مسألة

التّحوّل البدني لِغريغور في جُملةٍ واحدةٍ هي أُولَى جمل القِصّة المسرودة، فإنّ «تحوّل» العائلة هو الذي سترويه لنا هذه القصّة وتجعلُنا نَلْحظ تجليّاته ومظاهره، وما ينتج عنه بالنّسبة لغريغور منِ سيرورة لا مفرّ منها نحو نهايته ككائن منبوذ تتمّ التّضحيّة به... يتبدّى تَحوّلُ العائلة هذا، من جهة، في كون الأب ـ وهو الشّيخ الذي كان قد أصبح مهدود القوى نتيجة إفلاسه وتقاعده ـ قد بدأ في استعادة قواه شيئًا فشيئًا، ومن جهة ثانية، في التّبدّلات التي تطرأ على سلوك الأخت تجاه غريغور، ومن جهة ثالثة، في غَلبة الاشمئزاز لدى الأمّ، في نهاية المطاف، على الحنان... وفي هذا السِّياق، نجد غريغور وقد أصبح تلك الحشرة العملاقة، ذلكَ «الشّيءَ» الذي لا يُسَمّى (كما ستنعتُه الخادمة، لدى إخْبارها عائلته بأنّها أزاحت عن كواهلهم عِبْءَ التّخلُّصِ منه)، يُشَكّلُ موضوعًا للنّبْذ وللكُره، ثُمّ تتمّ التّضحيّة به ويقبلُ هو أنْ يُضَحَّى به، عنْ طيب خاطر، إذا جاز التّعبير... ولا تُحَمِّل القِصّةُ أفرادَ عائلة غريغور وِزْرَ ما يَحُلُّ بهذا الأخير، فهُمْ، في نهاية المَطاف، ليْسُوا أحسنَ من غريغور الذي كان قبل التّحوّل ولا أسوأَ منه، وإنّما هنالك وضْعٌ جديدٌ ـ يتجلّى في كون غريغور أصبح عديم الفائدة، اقتصادِيًّا، بالنّسبة للعائلة، مثلما أصبحت هيئته الجسمانِيّة مثيرة للاشمئزاز الشّديد (وحتّى للخوف، من طرف الأمّ ومُسَيِّرِ الشّركة، مثلا) ـ وهذا الوضع هو الذي نتج عنه ما نتج من تحوّلات، كان من بين ما أدّتْ إليه أنّ غريغور قُضِيَ عليه بالمُضِيّ، تدريجيّا

ولكنْ حَتمِيًّا، في اتّجاه نهايته التي لا نَشْعُرُ بأنّها مأساويّة تمامًا، إذْ يُخامِرُنا الإحساسُ، أيْضًا، بِكونِها مُخَلِّصة...

على مُسْتوى نصّيٍ، نجد أنّ عددا من دارسِي «التّحوّل»، من وجهة نظر لسانيّة أو باعتماد طرائق الشّعْرِيّة، لاحظوا أنّ عمليّة السّرد تتمّ، في الغالب الأعمّ، من وِجْهة نظر الشّخْصِيّة الأساسِيّة، أي غريغور نفسه، ولكنْ مَعَ وُجود وجهة نظرٍ أُخْرى، خارجيّة، قد تختلف مع وجهة نظر غريغور، بل وقد تكون مناقِضَةً لها، إضافةً إلى كونها تُقَدِّمُ لنا مُعْطَيات لا يُمكن لغريغور أنْ يَقِفَ عليها، بِسببٍ من انحباسه، على امتداد القِصّة تقريبًا، في غُرْفته، التي تكون مُنغلقة عليه في الغالب الأعمّ. وهنالك من الباحثين من اعتبر أنّ ازدواجِيّة وجهتي النّظر ناجمةٌ عن الازدواجِيّة التي يعيشُها غريغور، إذ إنّ له جسمَ «حشرة عملاقة»، من جهة، ووعيَ وعواطفَ غريغور السّابق، أي الذي كان ذا هيئة آدمِيّةٍ لا غُبارَ علَيْها، من جهة أخرى. وتقنيّة الازدواجيّة السّرْدِيّة هاته تُمَكِّنُ من إيراد الأحداث والمشاهد التي لا يُمْكنُ غريغورَ أنْ يكون شاهِدا عليها، بِسبب محدوديّةِ مجالِ حركته، من وجهة النّظر الثّانية، الخارجيّة. هذا مثال عن تبنّي السّارد لوجهة نظر غريغور: «إلّا أنّه [أي غريغور] اضْطُرّ إلى الاعتراف لنفسه بأنّهُ لن يقوى على احتمال ما يحدثُ لِوقتٍ طويل. فقد كانتا تُخليان غرفتَه من محتوياتها، كانتا تنتزعان منه أحبَّ الأشياء إليه! فهما قدْ أخرجتا الخزانة التي يوجدُ فيها منشارُ زخرفةِ الخشب وأدواتٌ أخرى، والآن كانتا تقتلعان منضدة الكتابة، المُسَمَّرَةَ تقريبًا إلى الأرضيّة، تلك المنضدة التي كانَ يُنْجِزُ عليها فروضه أيّامَ دراسته في مدرسة

التّجارة، وحين كان تلميذا في الثّانويّ، بل وحتّى في زمن المدرسة الابتدائيّة.» وهنا، مثال آخر، لكنْ، في هذه المرّة، عن عملِيّة السّرد وهي تَتِمّ من وِجْهة النَّظَر الخارجيّة: «فيما تكون المرأتان، في مكانٍ مُجاور، تتركانِ دموعَهُمَا تتمازج، أوْ تُسَمِّران عيونهما على المائدة، من دون حتّى أنْ تبكيا»، فهذه العبارة تَصِفُ لنا واقعة لا يُمكِنُ أنْ يُعايِنها غريغور، إذ إنّها تقع بعد أن تكون أختُه غريتِهْ قد أغلقتْ عليه باب غرفته... والقول بأنّ السَّرْد يتمّ في غالب الأحيان من وجهة نظر غريغور، لا يعني أنّه كان بإمكان الكاتب اعتماد شخصيّته الرّئيسة تلك كسارد يتحدّث، بشكل مباشِر، بضمير المُتكلّم. فغريغور، كما بَيّن ستيفان مُوزيسْ، كان قد أصبح في حال من تفكّك الهُوِّية أَدَّتْ إلى استحالة أنْ يُعَبِّر هو عن هُوِّيَته: فوعيُه وجسدُه أصبحا غريبين تمامًا بالنّسبة لبعضهما البعض، ووعيُه ما عادَ يَسْكُنُ جَسَده الجديد، ولذا، فليس واردا أنْ يقول: «قوائمي»، مثلا، أو «قرْنَا استشعاري»... وهكذا، فحين يتعلّقُ الأمر بالحديث عن جسد «الحشرة العملاقة» الذي أصبح لغريغور، في غرابته المطلقة بالنِّسْبة لوعيه، أيْ في حيوانيّته الخالصة، فإنّ السّارد يُضْطَرّ إلى اعتماد وجهة النّظر الخارجيّة. وعلى العكس من هذا، فإنّ السّارد يتكلّم من وجهة نظر غريغور، حين يكون هذا الأخير قادِرًا، عن طريق وعيه، على الإحاطة بما حوله مِمّا يكونُ موضوعًا للسَّرد.

وإذا كانت الدّراسات النّصّيّة لـ«التّحوّل» قد أَوْلَت كلّ الاهتمام لِلعلاقات الدّاخليّة والمنطقِ الدّاخليّ للنّصّ، ولما يُشَكِّلُ «أَدَبِيَّتَه»، فقبلها وحتّى بموازاتِها ظهرتْ مُقاربات تأويليّة لِـ«التّحوّل». في

العادة، يُصَنّف الباحثون المُقارباتِ التّأويليّة لِهذا النّصّ في خاناتٍ ثلاث، هي:

١ ـ التّأويل السّسيولوجي (والسّياسيّ).

٢ ـ التّأويل التّحلينَفْسيّ (أي من زاوية نظر التّحليل النّفسيّ).

٣ ـ التّأويل الميتافيزيقي:

١ ـ التّأويل السّوسيولوجي: يُمكنُنا أنْ نأخُذ كنموذج عنه دراسة السّوسيولوجيّ الفرنسيّ بِرْنار لاهِيرْ، «فرانتس كافكا. عناصر لنظريّة في الخَلْق الأدبيّ» (لاديكويرتْ، ٢٠١٠). في هذه الدّراسة يعملُ لاهيرْ ـ حسب ما أعلنه هو نفسُه ـ على الوقوف عند ما كان فرانتس كافكا يعيشُه وهو يكتب «التّحوّل»: ففرانتس كان، وقتَها، يعيشُ وضعًا صعبًا للغاية داخل أُسْرته، إذ بدا رافِضًا، من خلال اختياراته، أنْ يَتولّى الأنشطة التي تكفُلُ له الاضطلاع بالإرث الذي سيُشَكِّلُهُ لهُ رأسمال والده هِرْمانْ كافكا ـ فهذا الأخير كان تاجرًا ناجِحًا ـ وعِوض ذلك، اختار فرانتس أنْ يشغلَ وظيفةً تتطلّبُ الحدّ الأدنى من وقته، بحيْثُ يبقى بمستطاعه تكريسُ معظم ذلك الوقت للكتابة الأدبِيّة. وهكذا كان يكتب في كُلِّ ليلة، مُخَصِّصًا كامِلَ طاقته لما كان أبواه يعتبرانه عديمَ الفائدة. وكان له أيضًا أصدقاء كُتّاب. وقد غضبَ الأبُ من أُسْلوبِ فرانتس في العيش، فنعته بِ«الطّفيلِيّة» ـ والكلمة، هنا، مفرد لِ«طُفيليّات»، التي تُطلَق، في العادة، على حشرات تعتاش من أجسادٍ حيّة، مُمْتَصّةً دِماءَها، من دون أنْ تقضي عليها ـ

فما كان من فرانتس إلّا أنْ أخذَ استعارة «الطّفيلِيّة» تلك بِشكلٍ حرفِيّ، فتخيّلَ شَخْصِيّةَ غريغور سامْسا، الذي يستيقظُ في أحد الأصباح فيجد نفسه قد انقلب، فعلا، إلى حَشَرة هائلة، إلى كائن بَشِعٍ ومن الطُّفيليّات، ما دام لا يستطيعُ الاستمرار في مُزاولة عمله، وهكذا، أصْبحُ يُخيفُ عائلته، ويقلبُ نظام الأشياء. ونُشِيرُ إلى أنّ بِرْنار لاهيرْ أَوْلَى اهتمامًا كبيرًا للعلاقات المطبوعة بما يُنعَت بالتّناقُض الوجدانيّ، والقائمة بين كافكا وأبيه ـ بما ترتّب عنها من صِراعات نفسِيّة لدى الكاتب ـ بِصُورةٍ يبدو معها أنّ لاهيرْ، وهو السّوسيولوجيّ، يُعْطي أحيانا الانطباع بأنّه يُمارِسُ التّحليل النّفسيّ. وفي الواقع، فهو يرى أنّ هذا النّوع الأخير من البحث ـ العلاقة بين الأب والابن، هنا ـ ينبغي أنْ يدخل في نطاق اهتمام الباحث السّوسيولوجيّ، وبِصورة أدقّ، في نطاق ما يُسَمّيه «ميكروسوسيولوجيا»...

وتجدر الإشارة، إذا تركنا جانِبًا تصوّرات برنار لاهير، إلى أنّ قراءات سوسيو ـ سياسيّة مُعيّنة تعود إلى ثلاثينيّات القرن العِشرين، كانتْ قد انتهتْ إلى اعتبار كافكا ماركسيًّا، وإلى أنّ قراءاتٍ أخرى، ظهرتْ بعد الحرب العالميّة الثّانيّة، رأتْ في عددٍ من كتاباته تصويرا استباقيا، بصورةٍ إبداعِيّة لها خصوصِيّاتها، لمعسكرات الاعتقال مثلا...

ويُشيرُ جيرار ريدَان وبريجيت فيرنْ ـ كانْ إلى أنّ التّأويل السّياسيّ لـ«التّحوُّل» يُركّزُ أساسًا على الاستلاب الاقتصاديّ والاجتماعيّ لأسرةٍ تنتمي إلى البورجوازيّة الصّغيرة، ويعْتبرُ هذا

التّأويل أنّ «تَحَوُّل» غريغور الجسمانيّ هو بمثابة علامة على تمرُّده الفرديّ ورفضِه لحياةٍ مُسْتلَبة، لكنّ التّمرّد الفَرْدِيّ لا يُجْدي شيئًا، وإنّما ينتهي بِصاحِبِه إلى مزبلة التّاريخ، فيما تبقى الأوضاع الاجتماعيّة على ما كانتْ عليه.

٢ ـ التّأويل التّحلينفسيّ: يُشِيرُ الباحثان المذكوران آنفًا (جيرار ريدَان وبريجيت فيرنْ ـ كانْ) إلى أنّ هذا التّأويل يتمّ من خلال التّركيز على ما يُنعت في العادة بالمثلّث الأوديبي ـ أي على العلاقة بين كلّ من الأب والأمّ والابن ـ وعلى الصّراع بين مبدأ اللذّة ومبدأ الواقع. ويُضيفان أنّهُ، من زاوية النّظر هاته، تتمّ دراسة «التّحوّل» كما لو كان حلما، يمْكنُنا من خلاله تتبّعُ آثار العلاقة الشّديدة الاضطراب بين الشّخصيّة الرّئيسة، أي غريغور، وجسدِه، من جهة، وآثار تنامي عدم تواصُله مع الآخرين، من جهة ثانية. وإذْ تنقادُ الشّخصيّة الرّئيسة إلى استيهامِها الفُصامِيّ، فهي تشعر بأنّها مَقْصِيّةٌ دون وجه حقّ، فتُصبح كبشَ فداء، يُضَحَّى بها وتُضَحِّي بحياتها.

٣ ـ التّأويل الميتافيزيقي: وينطلق ـ حسب دراسات معيّنة، من اعتبار أنّ المسار الشّخصيّ لغريغور في «التّحوّل»، يُشَكِّلُ، في الواقع، بحثًا يعتمد طريقةً، جذريّةَ الطّابع، عن أنَاهُ الحقيقيّة. ولكنّ القيم الرّوحِيّة التي يُجَسِّدُها غريغور (فهو يتوخّى المُطلق ويسعى إلى مَثَلٍ أعلى ترمزُ إليه الموسيقى خاصّةً) يَتِمّ، في نهاية المطاف، دَحْرُها مِنْ قِبَل قوى الحياة التي تُمَثِّلُها عائلة سامْسا.

إنّ هذه الضّروب من التّأويل تتميّزُ بطابعها الجِدّيّ، طبعًا، بل إنّها غالبًا ما تنبني على مُعْطيات في «التّحوّل»، تتّسِم بكونها مُخيفة، أو مُجلّلة بالمرارة ومأساويّة الطّابع... فكيف نُفَسّر ما يُقال من كون كافكا كان يقرأ قِصّته الطّويلة هاته لأصدقائه وهو يضحك؟ إنّ هنالك من اعتبر أنّ ضحك كافكا ذاك كان ذا طابع دفاعيّ عن النّفس، مُنْطلَقُه أنّ التّحوّل الجِسْماني لغريغور قد لا يَبْدو مُقْنِعًا لسامعي قِصّته، وهنالك من رأى أن ذلك الضّحك، مِنْ قِبَل كافكا، كان يهدف إلى الحيلولة دون أنْ يُقيمَ سامعوه مُماهاةً ما بين غريغور وبينه هو... ومع هذا، فإنّنا نجد أندري بريتون يُدرج عددًا من صفحات «التّحوّل» في مؤلَّفه «أنطولوجيا الفُكاهة السّوداء»... والواقع أنّ «التّحوّل»، في بعض المواضع، تُثيرُ لدى القارئ إحساسًا بأنّ ثمّة تفكّهًا ما، «أسود» بكلّ تأكيد، من خلال بعض الوقائع الغريبة التي قد تدفع القارئ إلى الابتسام، رغم كلّ شيء. نكتفي هنا بمَثَلٍ واحد، تفادِيًا للإطالة: إنّنا نجد غريغور، بعد أنْ عاين بعضًا من ملامح تحوّله البدنيّ، الذي جعله يُصبِح «حشرةً عملاقة» ذات قوائم دقيقة، يعود إلى التّفكير في بعض المظاهر السّلبيّة لِمهنته، كأنْ لا شيء يُنغّص عليه الحياة سوى تلك السّلبيّات: «ولا شكّ أنّه حاولَ مئة مرّة [أنْ ينام]، مُغْلقا عينيه لِئَلا يرى مشهدَ قوائمه في حركتها الرّاعشة، ولم يَكُفَّ إلا حين أحسَّ ببعض الألم الذي لا حِدّة فيه، والذي لم يسبق له من قبل أن استشعره. «آه، يا إلهي»، قال في نفسِه، «أيّ مهنة متعبة قد اخترت! جَوَلانٌ، يومًا بعد يوم. وعمليّاتُ البيع تُثيرُ الأعصاب أكثرَ بكثير ممّا لو كانتْ في مقرّ الشّركة نفسِه...»

لقد كتب كافكا «التّحوّل» فيما بين ١٧ نونبر (تشرين الثّاني) و٧ دجنبر (كانون الأوّل) من سنة ١٩١٢، كما يُسْتَخْلَصُ من الرّسائل التي كان يتبادلها، وقتَها، مع فيليس باور ـ خطيبته التي سينفصل عنها ثمّ يعود إليها أكثر من مرّة، دون أن يُقَيَّض لهما أنْ يتزوّجا، لأنّه هو كان متمسّكا بوحدته، معتبرًا إيّاها ضروريّة له باعتباره كاتبًا. وفي الفترة التي كتب خلالها «التّحوّل» (قبْلَهُ، لكنْ في نفسِ السّنة، كان قد كتب «الحُكم»...)، كان كافكا يعيشُ مشكلاتٍ على الصّعيد الماديّ وفي نطاق الوظيفة، كما كانت علاقته بأبيه متوتّرةً، وعلاقته بخطيبته محكوما عليها بأنْ تكون عابرة وعقيمة، وقدْ راودتْهُ فكرة الانتحار، كما اعترف بذلك لصديقه ماكس برود.... ويعتبر بيرنار لورتولاري ـ وهو صاحب ترجمة متميّزة ل«التّحوّل» إلى الفرنسيّة، ومترجم عدد كبير جِدّاً من أعمال الأدباء الألمان إلى اللغة المذكورة ـ أنّ كافكا لرُبّما يكون قد «أَعْدَمَ» جانبَهُ السّيّئَ هو نفسه، من خلال غريغور سامسا. لكنْ، حتّى لو صَحّ هذا ـ يقول لورتولاري ـ فإنّ معنى قِصّة كافكا «يبقى في مكان آخر»، كما أنّه «أكثرُ عمومِيّةً بكثير»، وبالنّسبة إلى لورتولاري، فإنّ «المادّة الأوتوبيوغرافيّة تبقى مادّةً ليس إلّا، وما يَمْنَحُها بِنْيةً هو مشروعٌ سَرْدِيّ (...) يخلق، بتفرُّدٍ أخّاذ، كتابةً يتحكّمُ فيها بأكملِها نموذجٌ سلوكيّ، هو تحديدًا نموذجُ الإقصاء». وهنا تكمن، فيما يخصّ قِصّة «التّحوّل»، «قيمتُها الأدبيّة أيضًا، وسِرُّ نجاحها المُذهل».

هذا الكتاب

«لكنْ لمْ يَكُنْ قد جالَ بِبالِ غريغور أنّهُ سَيُخيفُ أحدًا ما، وعلى الخُصوص أختَه. فهو كان، فحسب، قد بدأ يَسْتدير ليلتحِقَ بغرفته، لكنّ حَرَكَتَه تلك نَتَجَ عنها أمر مثير، فنظرا لسوء حالته، وجد نفسَهُ مُضطرّا، من أجل إتمام نِصْف الدّورة، أنْ يَسْتعين بتحريكِ رأسِه، وهكذا كان يرْفعُه، المرّة تلو الأخرى، لكنّ رأسَه، في كلّ مرّة، كان يسقط ويرتطِم بالأرضِيّة. وتوقّف غريغور، وأجال بصرَه حواليه. وبدا له أنّ نواياه الحسنةَ قد اتّضحتْ».

رسمة الغلاف حسب الطبعة الألمانية الأولى

ISBN 978-9933350444